حيث رقص اللهب

" رواية "

ليلى حسن

obeikandl.com

حيث رقص اللهب

" رواية "

اسم الكاتبة: ليلى حسن

تدقيق لغوي: د.سامي قباوة

تصميم الغلاف: محمد علي

الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم

رقم الإيداع: ٢٨٤٧٠ / ٢٠١٧

المكتبة العربية للنشر والتوزيع

١١٤ عمارات جنوب الأحياء – مدينة السادس من أكتوبر

موبايل و واتس : ٠١٠٣٠٣٦٥٨٠١

جميع الحقوق محفوظة للناشر

وأي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة كانت ورقية أو إلكترونية،

أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذنٍ كتابيٍّ من الناشر؛

يُعَرِّضُ فاعله للمساءلة القانونية.

obeikandl.com

إهداء

"لامرأة تسقي وسادتها كل ليلة
لتورق الشمس، كل الحب "

ليلى حسن

* * *

obeikandl.com

تقديم

تتعلّم قراءة الحياة والإنسان، تُدرك مجاهل النفس، تتصفّح قواميس الضمائر، وأنت تقرأ (حيث رقص اللهب) ..

حيث ترصد ليلى حسن، الآمال والآلام .. وتوقظ المخاوف والأحلام .

وفي كثير من الأحيان تهزّ مكامن النفس وتثيرها .. وتعبث بعواطف القارئ إلى درجة نقل أحاسيسه لتزجّها في مسرح الأحداث .

هذا وتجعلك دائمًا في لحظة ترقّب لما سيحدث، من خلال الاشتغال الكبير على عنصر التشويق .. والحبكة الدراميّة التي تتسارع فيها الأحداث الضاجة بالحركة، بعيدًا عن زخرفة الكلام والاحتفاء بالوصف الجامد .

وبرغم أن أحداث الرواية غالبًا ماتدور بين أربعة جدران (بيت ماجدة)، إلا أنها استطاعت أن تطلق العنان لمساحات التخيّل .. وخلق فضاء قصصي شاسع، فلا تشعر بالملل والرتابة .

وبفضل الانتقال السلس بين الحدث والآخر، ستجد الدهشة حاضرة في كلّ مرّة .

تدور أحداث الرواية في بيئة عربية شعبية قوامها المحبة والطيبة، وتحتفي بالإرث والتقاليد ..

لكن منغّصات الحياة تدخل كل بيت لتعبث بنفوس بعض أصحابه، وبين ترحال وتجوال وحب وقهر.. تظهر ماجدة كأي امرأة عربية وجدت نفسها ضحية أخ بعقلية من العصور الجاهلية .. وطيبة أب لم يسعفه خريف العمر لينتصر لابنته ..

لتبدأ الصراع في ظل مجتمع ذكوري يولي ملذاته ونزواته صدر ديوانه .. ولايرى من المرأة إلا سلعة لتلك الأغراض .

ماجدة تكابر على جراحها، وتصبر في سبيل أبنائها، خوفا من خسارتهم وتفكك أسرتها الصغيرة ..

obeikandl.com

وإذا ما أردنا أن نحيل هذه القضية لتصبح أكثر شمولية، فإننا نجدها في سبيل عدم تفكك مجتمع .. أو أمّة .

على الجانب الآخر نرى وداد ..

وداد التي جسّدت الكاتبة في ملامحها كل مايحتويه العالم من مشاعر الأمومة .. وتحنانا يفيض على ولّادات، وهي التي لم تنجب قط .

وداد الصديقة الصادقة، المستعدّة للتضحية بأغلى ماتملك في سبيل إسعاد الآخرين .

هذا وفي الرواية شخوص كثر .. لكل دوره وقصته تتطرق لهم الكاتبة بموازاة الحدث الرئيس . فالكاتبة كتبت هذه الرواية على هوى نفسها وبوتيرة منازعة .. فلم تلزم قلمها بسمت قصصي معيّن .. أو منهج متعارف عليه ..

فبين الواقعية الكلاسيكيّة .. والخياليّة الجامحة .. تتولّد اضطرابات، تضرب بها عرض الحائط، استنتاجات العقل والمنطق المعروف .

وباختصار شديد :

حيث رقص اللهب هي انتصار للبيئة الطيّبة .. للتآخي .. للمرأة .. للأمومة ..

وصفعة قوية بوجه الظلم والمكتسب السيء من الموروث ..

وحيث رقص اللهب متنزّه للفكر وترفيه عن النفس .. وبيئة غنيّة لاستخلاص العِبر..

في نسيج محكم يترك القارئ مشدودًا حتّى النهاية المرسومة في هذا الميزان وعلى هذا القياس ..

من خلال متانة الحبكة، والربط السردي واستحواذ القارئ ..

فهنيئًا لكم في رحلة دائمة التجدّد .. وشوق مُبرح للوصول .

فاروق طه الموسى

طرابلس / ١٥ آب ٢٠١٧

obeikandi.com

الفصل الأول

استيقظت على صوت المنبه، يعلن بداية يوم جديد.

أود أن أستمر في النوم للأبد، ولكن موعد ذهاب الأولاد للمدرسة جعلني أطرد النعاس وأنهض من فراشي لأوقظهم وأساعدهم في تجهيز أنفسهم للذهاب.

وقفت متكاسلةً، أتثاءب.

نظرت أسفل قدماي

يا إلهي!

التقطت الورقة من أرضية الغرفة؛ فتحتها وقرأتها مرةً أخرى.

لا تبتسمي لأحد كما ابتسمت لي، وانتظريني...

ابتسمت وطويتها بعنايةٍ وحرصٍ، ثم دسستها في عمق وسادتي، بعيداً عن أية يد قد تطالها.

بعد أن خرج الأولاد للمدرسة أنجزتزت ماعلي من أعمال البيت ثم جهزت نفسي للخروج

رائحة الخبز المنبعثة من ضفائر النوافذ الملقاة على أكتاف الجدران في الحارة تشعرني أن معدتي تدغدغني.

وقت الظهيرة دائماً عامر بأصوات تحفز على الجوع.

قرقعة أواني الطبخ، صوت التلذذ، الهمهمة عند التذوق، والروائح الآتية من كل صوب في الأزقة الضيقة تخبرك عن نوع الطبخة في كل بيت.

الجدران عتيقة، متلاصقة، تتسرب من شقوقها الأصوات والروائح بلا خجل.

obeikandl.com

أبو جمال، جارنا العجوز، كلما مررت به وجدته يجلس قرب الأرجيلة، وحيداً في دكانه الفارغ إلا من أشياء قديمة قد تراكم عليها الغبار؛ فمنذ وفاة رفيقة دربه أم جمال، وهو يجلس هناك، يؤنس نفسه بسلام المارة.

رائحة التبغ المنبعثة من الأرجيلة تذكرني بأبي، إذ كان يجلس هنا، وتُسمع ضحكاتهما تجلجل في أركان الحارة.

في الشتاء تجد موقد الحطب يتوسطهم، وأحاديث الذكريات البعيدة توقظ شعورهم بالحنين لأيام قد مضت.

في ذاك الوقت كنت أظل جالسةً على ركبتيه، أتثاءب وأقاوم النوم لأسمع المزيد من القصص.

اليوم يجلس أبو جمال وحيداً؛ كل رفاقه رحلوا؛ أخذوا الدفء والموقد... لم يبق غيره ورائحة التبغ.

اقتربت منه.

.السلام عليكم، عمي أبو جمال. كيف حالك اليوم؟

.نحمد الله، يا بنتي.

صمت برهةً ثم أردف يقول:

.ما زال في العمر بقية. كيف حالك، أنت والأولاد؟ هل ما زال زوجك مسافراً؟

يكرر دوماً السؤال نفسه.

وأكرر الإجابة نفسها.

.بخير حال، يا عمي. نعم، ما زال مسافراً يعمل؛ أنت تعرف متطلبات الحياة.

.نعم أعلم ذلك، الله المستعان، يا بنتي. ليعد سالماً لكم، بإذن الله.

.سلمت، وأعطاك الله الصحة. ابق بخير دائماً.

مضيت في طريقي أتأمل ملامح الحارة من حولي التي حفظتها عن ظهر قلب؛ منذ ولادتي، وأنا لم أغادرها. عشت طفولتي وصباي فيها.

obeikandl.com

حتى بعد زواجي بعماد سكنت الحارة نفسها.

صحيح أن معالمها تغيرت؛ قد تكون أنهكت أكتافها من تقلبات الزمن ففقدت بعض الطوب، أو ربما هذا الحائط أو ذاك غيّر دهانه فأصبح لا يصدر رائحة الدفء التي كانت.

رحلت تلك التجاعيد التي تحمل حكايات المطر...

حتى أصوات الأطفال، وطريقتهم باللعب تغيرت...

ترى، هل أنا من كبرت أكثر مما ينبغي أو أن النفوس تغيرت؟

البنايات أصبحت شاهقةً. بعض البيوت احتفظت بتجاعيدها الجميلة، وأخرى حقنت بالبوتكس!

خطواتي كانت بطيئةً، مثقلةً بأحلام اليقظة، أو على الأغلب أن رائحة الطعام ملأت رأسي حتى تثاقلت هكذا في السير.

يا إلهي! أم سليمان تصرخ بأعلى صوتها، وتلحق بابنها في الشارع، وهي تحمل (الشبشب).

ابتسمت لهذا المشهد.

يبدو أنه أغضبها جداً لدرجة أنها نسيت أن تضع غطاء رأسها قبل أن تخرج خلفه.

تقدمت نحوها، وأنا أحاول كتم ضحكاتي.

.السلام عليكم. ما بك، غاليتي؟ ماذا فعل لك هذا الوغد الصغير؟

سألتها، مشفقةً على حالها.

قالت، وهي تلهث:

.رسب في امتحاناته! لم يفلح في أية منها. أرسلت مدرسته إنذاراً بالفصل. لقد أرهقني هذا الصبي؛ دللته كثيراً لأنه وُلد يتيماً، وها أنا أحصد النتائج.

أم سليمان أرملة. فقدت زوجها منذ ثماني سنوات في قصف على المخيم، أثناء الحرب الهمجية على المنطقة.

تركها وحيدةً، هي وأطفالها الأربعة. أذكر أنها كانت حاملاً في ذلك الوقت، وكادت أن تفقد جنينها وحياتها تحت أنقاض بيتها.

منذ أخرجوها من تحت الركام، وهي تحاول نفض غبار الحزن عن روحها لتتقن دور الأم والأب والوطن لأيتامها.

. لا عليك، عزيزتي. ما زال صغيراً. خذيه باللين؛ وسيكون كما تحبين، بإذن الله.

هزت رأسها موافقةً.

.أتمنى ذلك.

ثم غيرت الموضوع بسرعة كعادتها، وعادت لطريقتها المرحة في الكلام.

.تعالي، حدثيني عن أحوالك. اشتقت إليك؛ منذ زمن لم نتحادث.

. وأنا، والله، اشتقت إليك أكثر، ولكنني متعبة جداً؛ فلنؤجل جلستنا ليوم آخر.

أحب أحاديث أم سليمان، ولكن ثرثرتها لا تنتهي أحياناً.

رضيت مكرهةً.

.حسناً، أراك قريباً، ماجدة الغالية.

ابتسمت لها، وقلت:

.بإذن الله.

ولكني قبل أن أواصل طريقي قلت لها: أم سليمان أنت لا تضعين غطاءا على رأسك

نظرت لي ببلاهة كأنها لا تفهم ما أقول ، وضعت يدها على رأسها وصرخت ثم أخذت تعدو ناحية بيتها وهي تتلفت حولها تتأكد أن أحدا لم يرها على هذه الحال.

obeikandl.com

ضحكت كثيرا وأنا أشاهدها تجري بهذا الشكل.

"الترتيب الأفقي للمشاعر يعطي للابتسامة شكلاً متناسقاً، فلا أحد يلاحظ فوضى الحزن خلفها."

البناية التي أسكنها تقع عند أطراف المخيم، وهي متآكلة الزوايا، ولكنها صامدة؛ لها منظر مقبول، والأهم أن شبكة المجاري الخاصة بها لا تشتكي كثيراً كما يحدث في معظم بيوت المخيم.

بيتي يقابله بيت جارتي وداد. وهي لا تختلط بالناس كثيراً. لو كان الأمر بيد زوجها لمنع حتى دخول الهواء لبيته. وإن حدث يوماً، وأطلت برأسها من باب البيت خلسةً فستجد أن عنقها يرتعش خوفاً.

مشواري لم يستغرق وقتاً طويلاً؛ مررت بمدرسة ابني ابراهيم للاطمئنان على وضعه الدراسي. أثنت معلمته على انتباهه في الفصل، ولكنها شكت لي شقاوته الزائدة مع أصدقائه.

كنت أعلم أنه شقي، ولكنني تفاجأت بأنه يضرب أصدقاءه بلا سبب، وأنه يكذب أيضاً.

هذا همٌّ جديد يضاف إلى كاهلي.

ماذا علي أن أفعل؟ كيف لي أن أعالج كل هذه المشكلات المتراكمة؟

منذ سافر عماد، وأنا أحاول بكل جهدي تولي الأمور، ولكنها تزداد تعقيداً على الرغم من أنه لم يترك فراغاً في غيابه؛ فقد كان ولم يكن.

"الوقت يعيد إنجابنا من رحمه؛ فتتغير نظرتنا للأمور...والمسافات تعيد ترتيب أنفاسنا بما يتوافق مع بعدها... "

صراخ جارتي وداد بدأ باكراً هذا اليوم؛ يبدو أن زوجها في إجازة.

صوت السوط، وهو يهوي على جسدها، يخرج أنينها من بين شقوق الجدار، ويشعرني أن كل الأشياء من حولي تنكمش باعتذار.

أصبح هذا الصوت إدماناً لعيناً، ومن السخرية أن أقول إنني أترقبه لأجد فيه سبباً للبكاء.

نهاري مقسم ما بين أولادي، وبيتي، وصوت السوط في بيت الجيران.

الليل هو المساحة التي أختبىء فيها من الحياة.

ينهار كل ما أدعيه نهاراً؛ أشكو للعتمة ضعفي. أتكور في حضن اللاشيء؛ أريد ربما أن أقنع نفسي أنني أشتاق إليه.

الفراغ كالغراب، ينعق في حنجرتي؛ أسحب الهواء عنوةً لأتنفس.

ظلالي تتلوى على الجدار بضجر، وتتثاءب في وجه الألوان الغبية.

الشمس ما زالت تلتف بحجابها؛ لم تترك العنان لخصلاتها الذهبية كي تنسدل على كتف السماء.

هي أيضاً فاسقة اعتادت أن تكشف عورات الوجوه البائسة.

كم الوقت الآن؟ كنت أتساءل.

هو العمر إلا فرح.

الغصة في حلقي تتأرجح، فتضرب أركان قصبتي الهوائية بشراسة...

لا أريد النهوض...

أريد أن أتمدد كي أنصت لغباء السقف.

أريد أن أتنزه على جسدي الفارغ مني، أو أن أبقى بلا حراك...

المسافة بيني وبين يومي بعيدة جداً... بضع خطوات وشهقة طويلة وأرسم ابتسامةً كاذبةً، وأصل...

الشوك الذي نبت في لعابي ليلاً أصبح قابلاً للبلع...

هكذا، نحن النساء، نسقي آلامنا، ثم نرقص فوق عشبها بكل فخر...

لن أنصت بعد اليوم إلى هذيان الوقت. هكذا قررت؛ سأعتزل الساعة، وقد أغطيها بصورة امرأة عارية بلا وجه.

obeikandl.com

حقيقة أنا لا أحب الصور العارية؛ تصيبني بالغثيان. ولكن يبدو، في الحقيقة، أننا جميعاً عراة، ملامحنا تحتاج إلى أقنعة لتستطيع النظر في الوجوه المقلمة بخطوط الحزن.

الفزاعة في حقل النهارتخيف الغربان الساكنة في رأسي...

غادرت فراشي على صوت الأولاد... بدأوا يستيقظون للاستعداد للذهاب لمدارسهم.

أعددت إبريقاً من الشاي، وصنعت بعض الساندويشات لهم، ثم بدأوا يخرجون للمدرسة لأبقى وحدي بعد ذهابهم جميعاً.

أعددت فنجان قهوة وجلست إلى طاولة المطبخ لأشربه بهدوء. أنا لا أحب القهوة، ولكن مرارتها تعطي للنهار نكهةً مزاجيةً أحتاجها حين أتحسس لساني الصامت.

سأشرب فنجان قهوتي الممل، وأبدأ أنفض بصمات المارين عن جلد أشيائي.

يا وداد، ما زال الوقت باكراً؛ لا تصرخي.

هزتني نوبة من الضحك حين سمعت صراخها.

قد تجدني أضحك بصوت عال عند سماعها... لا أعلم لماذا... ربما لأخفف جرحها ببعض الهستيريا الصادرة من حنجرتي النازفة من لسعات سوط زوجها.

ربما يكون الغناء أفضل من الضحك...

أتساءل عن الأغنية المناسبة لأدندنها عند أول صفعة...

يكفي، يا عزيزتي! ترتجف الأبواب والنوافذ من احتراق حنجرتك، وأنا لا مزاج لي للغناء، ولا أملك أن أضع يدي بينك وبين السوط. سأجرب يوماً أن أرسمك، ولكن الألوان على جلدك قبيحة جداً، قد لا أجد لها مثيلاً.

يا إلهي! يبدو أن يومي سيئ، يسير حافياً نحو حفرة من جمر، وأنا أشعر بالدوار. أشعر أن علو السقف ينخفض. يجلس فوق قدميَّ ليمنعني من الحراك...

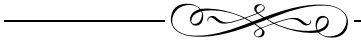

أنا أرتعش؛ هذا الضجيج امتص دفء الهواء، والأصوات تدق النوافذ بلا توقف.

سأخرج قليلاً؛ فربما أفادني بعض المشي، فهو يفرغ البرودة من جسدي على الأرصفة المرهقة.

الأسفلت لا يشعر بخطواتي. وحده الظل المتكىء على الزوايا يعرف أنني هنا...

هذا العجوز الذي يقف عند الناصية لم أره يوماً يبتسم؛ ربما لأنه لم يذق يوماً الحلوى التي يبيعها لأطفال المدارس...

كل قطعة تحمل ابتسامة، مذاقها كما الحياة...

بدأت أشعر بالغثيان.

هيا، أيتها الفراغات، لا تقفي في بلعومي اللعين. هناك سحلية على الحائط تنظر إلي باشمئزاز يزيد من غثياني.

يبدو أن لون وجهي الأخضر لا يعجبها!

انتابني الضحك في تلك اللحظة، كما يحدث معي كل مرة أشعر بها بمدى استهزاء الحياة بنا.

"الضحك وسيلة مقبولة لمواجهة بعض الأمور. "

أمطري، أيتها السماء، لأغسل الألوان القبيحة عن وجهي.

يجب أن أعود للبيت؛ لم تعد قدماي تحملانني أكثر.

لا أعلم لِم خرجت في هذا الوقت. سعال المارة أرهقني أكثر، وعدت أحمل مزيداً من مرض الروح.

تباً! سأضطر أن أصنع مزيداً من القهوة لأقتل تلك الزواحف التي ترقص في أمعائي.

قهوتي ستسخر مني؛ فأنا عدت لها بمزيد من الطيور السوداء التي تقف على مقدمة جبهتي.

أعلم ما علي فعله الآن؛ سألتف بكومة من الغطاءات وأستمع لموسيقى حالمة كما يفعل العشاق المفعمون بالرومانسية.

قديماً كنت أظنني رومانسيةً بامتياز، ولكنني خالفت قواعد العشق الأربعين، ولم يحالفني الحظ في الاحتفاظ بقلبي، فقد أصبحت امرأةً بلا قلب!

سأغفو الآن على هذه الفكرة، فقد أحلم بفارس فوق جواد أبيض يأتي ليخفض حرارتي أو يزيدها. لا يهم هذا؛ هو تغيير أرجوه، ليس إلا.

وحين أستيقظ قد يكون النهار قد أفل حاملاً ذنوبه معه، والشمس ارتدت عباءتها السوداء وغادرت...

وتبقى لي العتمة...

الفراغ لا يوقظ أحد، ولكني شعرت بوخزة الصمت فانتفضت.

الزوايا مغمضة عينيها، والستائر تتثاءب معلنةً رحيل الضوء.

عيناي تسيران باتجاهات عدة، وتستيقظان بروية رغم انهزام جسدي أمام دفء اللحظة...

يا لحظي! أشعر أني خفيفة. رأسي لا يصدر صوت صرير باب صدئ.

لعل الغفوة التي أخذتها أفادتني.

يبدو أن الأولاد عادوا من المدرسة، ولم يوقظوني حتى لا أجبرهم على الدراسة.

طعام الأمس المتبقي أفادني في هذه الوعكة المفاجئة. اعتدلت بجلستي، وأنا أتثاءب. اغتسلت غيرت ملابسي واتجهت للمطبخ مباشرة فوجدته ممتلئاً بالأواني المتسخة التي استعملها الصغار اليوم.

obeikandl.com

وضعت ركوة القهوة فوق الموقد، وبدأت أنظف المطبخ. يبدو أن الوقت تأخر كثيراً فالأولاد قد استسلموا للنوم منذ بعض الوقت.

أخذت قهوتي وجلست عند جهاز الكمبيوتر لأتفقد الرسائل الواردة؛ لم يكن هناك أية رسالة من عماد.

وجدت فقط رسالةً طويلةً من صديقتي إيمان تصف فيها يوماً مر بها فأرسلته لي تشاركني لحظاتها البائسة كما عادتها.

يا صديقتي، روتينك اليومي لم يعد يلفت انتباه أحد، فكل النساء اليوم موشومات برذيلة الخيبة.

هذا ما فكرت به وأنا أقرأ رسالتها

ساقية الوجع تخدش عتمة الأفق. يسافر الرمل في جيد الريح مترنحاً، تسمع أنين الثرى يشكو لحفيف ورقة جافة شوقه للمطر.

سمعت إيمان صوت صرير الباب فتأهبت لاستقبال زوجها. شعرت برهبة دخوله للبيت؛ فهو لم يسمح لها يوماً بالاقتراب منه للحد الذي تجعل المسافات بينهما تتلاشى. صدى خطواته أربك عينيها فعجزت كعادتها أن تنظر إلى وجهه.

منذ تزوجت به، فقد الوجه الذي رأته فيه أيام الخطبة. فقدت ابتسامته زهوها فأصبحت باهتةً؛ لم تعد مركزاً للكون كما كانت يوماً. شغف الروح إليه تبلد، والمسافات اتسعت؛ هو بعيد، وهي تقف بلا أجنحة.

لم يلق التحية، بل جلس يهزكرسيه، وينفث دخانه بلا اكتراث.

قالت له:

.عدت باكراً اليوم.

.أتريدين مني الانصراف؟

كان حاداً.

.لم أقصد ذلك. أردت الاطمئنان، ليس إلا.

أجابته بهدوء كاذب، وحنجرتها تكاد تتمزق بحجم الغصة.

ثم بمرح مصطنع، ودلال متقن:

.ماذا فعلت اليوم؟ احكِ لي.

قالتها، وهي تعبث بخطوط كفه. رد بسخرية معلنة:

.ذهبت للعمل، وها أنا قد عدت.

.رائع سأجهز طعام العشاء. لعلك جائع.

.لست جائعاً. سأخرج.

.لم عدت إذاً؟

.وهل ستحاسبينني على خروجي وعودتي؟

قالها باستهزاء، وخرج.

صفعة الباب جعلتها تنكمش، وتشعر بالبرودة والفراغ.

تأملت الجدار وتلك الصورة القديمة المملة التي تغطي مساحةً كبيرةً منه، بكل وقاحة. هناك، استقرت فيه ساعة كبيرة سمجة تذكرها دائما بخيانة الوقت ومرور العمر بلا فرح، بلا أغنية.

طالما تباهت بين صديقتها بجمالها عينيها البنيتين. كانتا تشعان بالحياة!

الآن تعكسان بقايا سخريته.

جسدها المنساب برقة فقد شغفه للحياة.

بدأت ترقص على دندنة ساخرة؛ تدور في رحاب غرفتها، تضغط بكعبها على برودة الأرض.

بغتةً، تراءى لها ظله بباب الغرفة. مدت يدها، تدعوه إلى الاقتراب؛ تقدم إليها؛ أمسك بخصلة من شعرها وقبّلها.

اقتربت أكثر، فأوقفها بحركة من يده.

.ليس الآن. اذهبي لإعداد الطعام. أشعر بالجوع.

obeikandl.com

ولكنها تعلقت بعنقه، أرادته أن يستجيب لها. لم ترد لأنوثتها أن تهزم في تلك اللحظة.

.ضمني اليك؛ أشتاق إليك.

كانت تكذب، فهي تعلم أن الشوق لم يعد يجمعها به، ولكنها كانت مصرةً أن تثبت أنها أنثى مرغوبة.

جفول ملامحها من برودة أنفاسه أصاب المهد بقشعريرة اللقاء.

هنا أنثى قد ماتت! هذا ما أثبتته اللحظة.

تمرد اللحظات زاد وتيرة الرغبة. أنفاسها كانت تتسلل على أطراف أصابعها؛ تريد أن تنفلت من قبضة عينيه.

وسامة أصابعه أغلقت آخر منفذ للهرب.

لهفة اللحظات توقفت منذ شتاء بعيد...

أشاح بوجهه المكتفي، والتقط سيجارته الأخيرة.

تلك السيجارة البلهاء كانت الشاهد الوحيد على سخرية المسرحية.

نفضت الرذيلة عن ثوبها، واستلقت على وسادتها بلا موت أو حياة.

أتممت قراءة الرسالة، وجلست أرج فنجان قهوتي...

لسنا ضحايا، يا صديقتي. نحن أسوأ مما تتوقعين. مومس الليل تنام في مهدك كل ليلة، وتتقن تمثيل الدور.

نحن فاجرات، نقايض أجسادنا لنحظى بابتسامة منهم... وربما ارتفع السعر قليلاً؛ فيكون حديثاً ذا نكهة خاصة.

ما عليك سوى إتقان الدور ليكون المقابل مجزياً.

لا تبتئسي! أنت أحسن حالاً من غيرك. هناك من تعطي بلا مقابل.

نحن لا نعتصر الغيم، يا صديقتي، ليهبط المطر. نحن ننبش تربةً أكل الصدأ وجهها، وننتظر منها أن تنبت الياسمين!

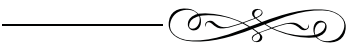

أغلقت جهاز الكمبيوتر خاصتي، وأويت إلى فراشي. لم أكن أشعر بالنعاس، ولكن أحاسيسي المتضاربة جعلتني أتكور في زاوية فراشي بلا حراك.

صوت وداد هذه الليلة يشبه أنين جرو فقد أمه. عاودتني القشعريرة، والأغنيات هربت من صوتي. أكاد أرى دموعها من خلف الجدران.

نساء كثيرات يجلسن الآن في صدري، يثرثرن بلا انقطاع... يكاد صدري يخرج من قفصه، ويفر هارباً من الأصوات الصاخبة واللهاث الموجع.

أشعر أني مدينة، أو ربما كون من الخيبات.

أنا الآن مستعدة أن أسكب القيء الذي انتابني صباحا والحزن والضجيج وكل هذا الجنون في حكاية؛ فقد أغفو وأشرق غداً بلا صخب، بلا قيء.

obeikandl.com

الفصل الثاني

استيقظت باكراً، وأنا أشعر باعتدال المزاج على الرغم من أني لم أنم جيداً ليلة أمس.

فتحت باب بيتي لأخرج القمامة كما اعتدت كل يوم. فُوجئت بجارتي وداد تقف عند باب بيتها تخرج قمامةً، هي أيضاً.

ذعرت حين رأتني حاولت أن تدخل بيتها قبل أن تلقي تحية الصباح.

أنا أعذرها؛ لا تريدني أن أرى البقع الزرقاء الكبيرة التي تحوط عينها اليسرى.

هذا هو سبب نحيبها ليلة أمس، أو ربما كانت العلامات الزرقاء تغطى مساحة أكبر من جسدها ولكنها تختبئ بخجل، تحت الثياب.

بادرت أنا بالتحية:

. صباح الخير، عزيزتي وداد. كيف حالك؟

فأجابتني بلطف، وهي تدير وجهها للناحية الأخرى لتخفي، وتشغل نفسها بلا شيء:

. صباح النور، الحمد لله. كيف حالك أنت؟

. الحمد لله.

. ما رأيك بفنجان قهوة؟

فاجأت نفسي بأن دعوتها. تلعثمت وحاولت التهرب فأصررت بطريقة مازحة لأشعرها بالراحة أكثر؛ فأنا لا أراها تخرج أبداً.

لم تكن دعوتي شفقةً عليها، ولكنها فضول لأعرف ما تخبئه الجدران من قصص.

دخلت البيت مترددةً، مرتبكةً، تتلفت كأنها تبحث عن ملاذ يخفي خجلها.

دعوتها إلى لجلوس، وذهبت للمطبخ لأعد القهوة. كنت أقف قبالتها؛ فالمطبخ مفتوح على صالة البيت.

بادرتها بالسؤال:

.كيف تحبين قهوتك، عزيزتي؟

.أنا لا أحب القهوة.

توقفت عن إعداد القهوة، ونظرت اليها متعجبةً.

قالت:

.سأشربها على أية حال؛ اصنعها كما تحبينها أنت.

.أنا شربت قهوتي باكراً، يا عزيزتي. لنشرب كوباً من العصير الطازج. أظن أنه سيروق لك.

ابتسمت وقالت:

.كما تريدين.

هل كانت فعلا ستشرب القهوة على الرغم من أنها لا تحبها؟

تباً لي! نعم، ستفعل؛ فهي اعتادت أن تبلع الحياة مهما كان طعمها.

يا لك من بائسة!

هذا ما خطر ببالي، وأنا أبتسم لها.

وضعت الصينية أمامها على الطاولة، وجلست قبالتها.

.تفضلي، عزيزتي، تناولي شرابك.

ابتسمت ومدت يدها وأمسكت بكأس العصير.

بيت جميل وهادئ جداً...

.هل الأولاد في المدرسة؟

. نعم، كلهم في المدرسة، والصغير في الروضة. أحمد في السادس الابتدائي، ووائل في الثالث، وإبراهيم في الثاني. أما عمرو فما زال صغيراً، في سنته الأولى في

obeikandl.com

الروضة. وكما تعلمين، فإن زوجي مسافر للعمل في الخارج منذ مدة طويلة. بعد ولادة عمرو مباشرةً تقريباً.

.يا لك من محظوظة!

ضحكت وقلت لها:

.لماذا تجدينني محظوظةً؟

.زوجك مسافر؛ أظنها نعمةً. ولو كنت مكانك لشجعته على البقاء حيث هو ما دام يرسل لك المال الذي تحتاجينه، أنت والأولاد.

.وهل تظنين أنها فعلاً نعمة أن يتركني هنا وحيدةً مع أربعة أطفال، ويبقى هو هناك بلا مسؤوليات؟ هل المال مسؤوليته الوحيدة نحو أولاده؟

.وهل تظنين أنت أن بقاءه كان سيجلب لك الفرح وراحة البال؟

ثم ارتفعت يدها تتحسس عينها المتورمة. راقبت حركة يدهاولم أجبها رغم يقيني من الإجابة.

هذا التناقض في الأمنيات يصيبني بالدوار!

كمن يطحن زبد البحروينتظر أن يشربه لبناً.

لم نكمل شرب العصير حتى سمعنا وقع خطوات على درج البناية.

كانت وداد قد أصرت أن يبقى باب البيت مواربا قبل دخولها خشية أن يأتي أحد فلا نسمعه فاستجبت لرغبتها وأبقيته مفتوحاً كما أرادت.

أنزلت الكأس عن شفتيها على عجل فانسكب جزء كبير منه على ثوبها وعلى الطاولة. وقفت وتمتمت بكلمة اعتذار، فقلت لها:

.لا عليك، سأنظفه الآن.

نظرت إلي، وهي تلقي كلمة وداع لا تكاد تُسمع، والخوف يكاد يسبقها إلى باب البيت.

في لمح البصر كانت قد وصلت لبيتها وأوصدته قبل أن يصل صاحب الخطوات إلى أعلى الدرج.

أغلقت باب بيتي أنا أيضاً، ووقفت خلفه، أتأمل خاتم الزواج في يدي اليسرى.

وضحكت بملء فمي... أنا محظوظة! أنا حرة!

سبق وأن أخذت موعداً من طبيب الأسنان. كنت أقوم بتأجيله منذ مدة لأنني أشعر بالرعب من ذلك المثقاب الذي يدخله في فمي ليحفر أسناني؛ فيصيبني بالصداع.

ولكن، وعلى الرغم من كل مساوئه، فإنه يبتلع كل الأصوات والأفكار التي تتحرك داخل جمجمتي فيبقى تفكيري محصوراً في صوته فقط.

وصلت عيادة الطبيب فوجدت أن دور الانتظار طويل جداً فأخرجت هاتفي من الحقيبة، وبدأت أبحث عن رواية كنت قد وضعتها في وقت سابق لأشغل وقتي بقراءتها حتى يصلني الدور.

انهمكت في القراءة، ونسيت تماماً كل ما حولي. انتبهت على يد تهز كتفي، فرفعت رأسي، وأنا ما أزال مشوشةً بين الواقع وبين أحداث الرواية الشائقة.

. لو سمحتِ، أريد أن أستأذنك في أخذ دورك؛ فزوجي وأولادي في البيت ينتظرونني، ولا أريد أن أتأخر عليهم.

يا لك من امرأة! لو دخلت قبلي لم أكن لأعرف قط.

ولكن ما لفت انتباهي في كلماتها أنها قدّمت زوجها على أولادها... هل كانت إشارتها مقصودةً؟

.نعم. أكيد. تفضلي.

جلست إلى جواري، مبتسمةً بامتنان.

.هو طيب، ولكنه أقلع عن التدخين؛ وهذا يؤثر على مزاجه فيضربني ويضرب الأولاد إن أخطأنا.

كانت تشرح طلبها مني بكل بساطة.

لا تبرري، أيتها الحمقاء؛ أنا أفهم الأمر جيداً، فهو غالباً ما يضربكم أأخطأتم أم لم تخطئوا!

هذا ما قلته لها بصمت.

عدت للبيت، وأنا أشعر بصداع شديد، وكأن هناك طنيناً يدوي في رأسي.

أثناء صعودي درج البناية سمعت جاري ينهق بأغنية صاخبة؛ يبدو أن مزاجه معتدل اليوم.

سترك، يا رب!

كأنه يهيئ نفسه لليلة صاخبة مع تلك المسكينة!

في المساء، وبعد أن غفا الأولاد أمام التلفاز، اضطررت لنقلهم لأسِرّتهم، فاحتاج ذلك جهداً كبيراً؛ لم يعودوا صغاراً، كما بالأمس، وصار نقلهم مرهقاً جداً.

جلست إلى طاولتي، أمام الكمبيوتر، وأنا ألهث. انتظرت حتى استعدت أنفاسي، ثم بدأت أتفقد بريدي الوارد.

كنت أنتظر مكالمةً من عماد، أو على الأقل رسالةً، فهو لم يتصل من مدة طويلة: منذ أسبوعين، على ما أذكر.

خلال أيام سفره الأولى كان يتصل كل ساعة؛ يتكلم عن أي شيء وعن كل شيء حتى ظننت أنه فعلاً يفتقدنا على الرغم من أنه لم يكن ليتمم جملةً واحدةً مفيدةً أثناء وجوده في البيت قبل السفر.

أحياناً، كان يبكي أثناء المكالمة شوقاً إلينا، ويعاتبني إن تأخرت في الرد عليه مهما يكن السبب، فكان يشعرني بالذنب.

بعد أسبوع، استقر في عمله هناك. بدأ يتصل يومياً في المساء، بعد عودته من العمل. استمرت هذه الحال شهراً تقريباً، ثم بدأت أنتظر اتصاله كل أربعة أيام، وربما كل أسبوع. كان المبرر الدائم أنه لا يجد الوقت، وأنه يعود من العمل مرهقاً، فيذهب للنوم مباشرةً.

ثم ما عاد يسألني عن أحوالي؛ يؤدي واجبه في السؤال عن الأولاد فقط، ويطمئن على وصول التحويلة المالية لنا.

كأنه يقول: هذا واجبي، وأديته.

يبدو أنه نسي أني أعرفه، وأني شعرت من حديثه بوجود أنفاس امرأة أخرى!

لم أعد أعاتبه أو أحاول اتهامه أو مراجعته، حتى إنني لم أعد أنتظر اتصالاته.

هو واجبي بصفتي زوجةً وأماً، أؤديه يومياً، أمام الكمبيوتر.

أحياناً علينا ارتداء الأقنعة جيدا تفادياً للسقوط.

رنين رسالة الماسنجر انتشلني من أفكاري. كانت رسالةً من دعاء، صديقتي الفيسبوكية، قالت فيها:

وصلت الآن لدبي بعد رحلة متعبة بالطائرة؛ استقبلني أخي، وأنا الآن في الطريق للبيت. الجميع ينتظرني.

سأكلمك غداً لأحكي لك الأحداث بالتفصيل.

تعرفت على دعاء منذ عام تقريباً؛ أصبحت مقربةً منها، تحكي لي عن كل صغيرة وكبيرة تحدث معها.

أما أنا فلم أثق يوماً بالشاشة الزرقاء لأحكي لها عني شيئاً، أو أنني لم أجرب أن أثق بأحد يوماً لأحكي له شيئاً.

دعاء تركت خلفها ثلاثة أطفال في سوريا أكبرهم يبلغ ثماني سنوات وهربت من زوجها إلى دبي حيث يقطن أهلها.

obeikandl.com

قالت لي في إحدى المرات:

. لم أعد أطيق الحياة معه. أولادي سيكبرون بي أو بدوني، سيتزوجون ويتركونني على كل الأحوال.

في رسالتها التالية أخبرتني أنها عزمت على الرحيل الأبدي.

كانت تبكي أحياناً، وتعبّر أحياناً أخرى عن شوقها إلى المغامرة المقبلة وأهلها الذين تفتقدهم.

تتعجل الوقت للتخلص من زوجها القذر، كما تسميه.

هو يجد أن من حقه أن يفعل ما يشاء معي؛ فأنا زوجته وملكه ولا يحق لي الاعتراض.

سألتها:

.وماذا يفعل؟

.يرى أن ثقباً عن ثقب لا يختلف، وأن الزوج له الحق بالدخول من أي طريق يستلذه.

كانت تتكلم عنه بتقزز يدعو للقيء...

لا أدري لماذا شعرتُ في أعماقي أنها تستمتع بتغيير الثقب، وإن أظهرت لي نقيض ذلك التام!

سمعتها بشرود، وهي تقول:

. لن أنسى أولادي يوماً، ولكنني أشعر بالنجاسة طوال الوقت؛ أريد الطهور، أريد وابلاً من مطر ليغسل روحي.

" قفزات الحجر على وجه الماء تصنع الكثير من الدوائر المبهمة كأنها مراسم لموت الحجر غريقاً...

ومع كل ارتطام لنا نخوض تجربة الموت؛ وحده من أتقن القفز يصل للضفة الأخرى. "

obeikandl.com

أظن أن دعاء اختارت النجاة في وقت ما زلنا فيه نقاوم ضحالة الطين.

صوت وداد جز عنق الصمت مرةً أخرى. يبدو أن زوجها كان منتشياً هذا الصباح لذلك كان يغني.

الآن ذهب تأثير المخدر وبدأ يفرغ جنونه بضربها. عرفت منذ الصباح أن حفلاً صاخباً سيكون الليلة بينهما.

لم أفهم يوماً لماذا تصر على البقاء معه على الرغم من أنها لم تنجب منه أولاداً!

خرجت في الصباح بعد خروج الأولاد للمدرسة مباشرة لأستنشق الهواء؛ ربما أجد بعض الراحة في المشي قبل انتشار أشعة الشمس في الدروب.

تزامن خروجي من البيت مع خروج جاري، زوج وداد. لأول مرة أنظر إلى وجهه. كانت ملامحه وسيمةً، ولكن هناك شيئاً مخيفاً في نظرته جعلني أرتعد من الداخل.

كان يعريني بنظراته المخيفة،يدقق في كل إنش في جسدي

لماذا خرجتُ الآن؟

لماذا لم أخرج بعد الآن بدقائق أو قبله؟

.صباح الورد، جارتنا الجميلة.

.صباح الخير.

لم تعجبني نغمة صوته، ونعته لي بالجميلة، ولكنني رددت التحية وانسحبت على عجل حتى لا أتيح له المجال في المزيد من الحديث.

نزلت الدرج هرولةً دون أن ألتفت، وشعرت أن نظراته تلاحقني كعيني ثعلب يفكر باصطياد فريسة.

لم أستطع المشي كما خططت، فذهبت لزيارة أم سليمان، لعل ثرثرتها تنسيني بعض التوتر والخوف الذي أشعر بهما.

فرحتْ جداً بزيارتي، وأخذت تحكي عن أخبار الحارة بلا انقطاع. جعلني حديثها المضحك أنسى كل ما أحمله في جوفي من غصة، ولو للحظات.

أصرت أن أشاركهم طعام الغذاء.

. لم يبق على عودة الأولاد من المدرسة الكثير. سأذهب لتحضير الطعام، أنا أيضاً.

. سأرسل في استدعائهم، ونأكل معاً.

وافقت على رأيها تحت وطأة إصرارها، وقمت لتجهيز الغذاء معها.

بعد الغداء جلسنا نكمل ثرثرتنا.

. ألم أقل لك ما حدث لجارتنا سعاد؟

. سعاد؟ من تقصدين؟

. سعاد التي توفي زوجها في حادث عمل منذ خمسة شهور تقريباً.

. نعم، تذكرتها، فقد ذهبنا معاً لتقديم واجب العزاء لها في زوجها.

. نعم، هي تلك.

. ماذا حدث لها؟

. المسكينة! لقد أجبرها والدها على ترك أبناءها وبيت المرحوم زوجها بعد مرور "الأربعين" على وفاته؛ لقد احترق قلبها على فراق أولادها؛ فهم ما زالوا صغاراً.

قال لأهل زوجها المتوفى:

. ابنتي ما زالت شابةً صغيرةً، ولن أتركها تعيش أرملةً وحيدةً في بيتها. خذوا أولادكم، وسآخذ ابنتي.

وعلمت من جارتهم أم محمد أن الأب اجتمع بأبنائه، وطلب منهم أن يتقدم أحدهم للزواج من أرملة أخيهم. أنت تعلمين كيف تسير الأمور في مثل هذه الحالة؛ يجب أن يستروا زوجة أخيهم ليتسنى لها البقاء مع أبنائها.

تبرع الأخ الأكبر بالزواج منها، وأبلغوا أباها بنيتهم لخطبتها له.

obeikandl.com

منذ أسبوع عقدوا القران، هي أصغر منه بعشرين عاماً، ولكنها كانت مضطرة إلى الموافقة حتى تستطيع العودة لأبنائها.

أتعلمين؟ لقد جُنت زوجته حين علمت بنيته الزواج من أرملة أخيه؛ فقد عاملتها دوماً على أنها أختها الصغرى. وها هي تأتي لتأخذ زوجها منها!

"الحياة دائرة مغلقة؛ هناك من يرى أن محيطها مجرد خط واه فيتركها ليخرج للمدى الأوسع. وهناك من يجلس في المنتصف ويظن أنه المركز، والجميع يدور حوله. والبقية تقضي عمرها تدور في الساقية، معصوبة العينين."

أما سعاد فلم يكن لها الخيار في الأمر؛ لقد سيقت لتدور حول الساقية دون أن ترى شكل الحياة.

استمر حديثنا حتى حلول المساء.

استأذنت من أم سليمان وعدت مع الأولاد.

فتحت الباب ودخل الأولاد إلى البيت. هممت بإغلاق الباب ولكنني تراجعت حين رأيت وداد تأتي بخوف ناحيتي.

.لا تفتحي الباب لأحد قبل أن تتثبتي مِن الطارق.

قالت جملتها، وعادت لبيتها مسرعةً دون أن تدع لي فرصة للسؤال الاستفسار عن معنى كلامها.

كلماتها أشعرتني بالخوف، وعادت لي ذكرى نظرات زوجها المخيفة، وأصبح لدي فكرة عن قصدها من التحذير.

جلست مع الأولاد لأساعدهم في الدراسة، على الرغم من أن تفكيري كان مشتتاً يدور حول ما قالته لي وداد.

. آه، يا عماد! لماذا فعلت بي هذا؟ الخوف وحده جعلني أتذكره، أو ربما حاجتي لإلقاء اللوم على أحدهم بما أشعر به الآن.

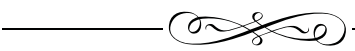

رفضت أن يشغّل الأولاد التلفاز، وطلبت منهم الذهاب للنوم بحجة أنهم لعبوا بما يكفي اليوم، وعليهم الركون للراحة الآن. والحقيقة أنني أردتهم أن يناموا لأتفرغ لخوفي.

نام الأولاد، وبقيت وحدي أنظر للباب بتوجس.

أهو توجس صرف، لا تخالطه رغبة؟

كنت أخشى أن أصارح نفسي بطيف فكرة برق في ذهني أول مرة ثم تلاشى...

ثم استجمع شتاته، ودهمني بقوة متعاظمة...

ثم تمايز إلى صوت ما عدت أقدر أن أصمَّ أذنيَّ عنه...

منذ أن رأيت زوج وداد، وخاطر واحد يسكنني...

أن يجلدني بدلاً منها...

أن أكون عاريةً في فراشها...

معه!

يا إلهي!

نهضت مذعورةً، وقررت أن أتفقد الفيس، لعل الحديث مع أحد يشعرني بالطمأنينة.

مروة "أون لاين". يا لحظي! هي الشخص الوحيد الذي أحتاجه الآن.

. السلام عليكم. كيف حالك، غاليتي؟

ردت فوراً:

. وعليكم السلام. بنت حلال! فتحت فقط لأكلمك؛ فقد اشتقت إليك جداً. كيف حالك والأولاد؟

. بخير، الحمد لله. لقد ناموا تواً. فتحت لأسلي نفسي بالتصفح والقراءة. احكي لي؛ كيف هي أحوالك؟ هل الجميع بخير؟

. نعم، كلنا بخير. تنقصني صحبتك، وأيامنا الجميلة معاً.

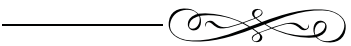

obeikandl.com

مروة صديقة الطفولة، ورفيقة أحلام الصبا.

استمر حديثنا بعض الوقت حتى انقطع الاتصال من ناحيتها.

أغلقت الجهاز، وذهبت إلى فراشي، لعلني أنجح في النوم.

استيقظت على صوت بائع الخضار ينادي في الصباح الباكر على بضاعته. اليوم الجمعة، إجازة الأولاد من المدرسة. نهضت من فراشي، وأنا أشعر بالاكتفاء من النوم رغم الكوابيس التي انتابتني ليلة أمس.

ذهبت للمطبخ، وجهزت طعام الإفطار، وأيقظت الأولاد واجتمعنا على الطاولة نتحدث، وكلٌّ منهم يعرض أمامي قائمة طلباته.

عماد لم يتصل منذ مدة قاربت على الأسبوع الثالث، ولم يرسل لنا نقوداً هذا الشهر. الأموال التي بحوزتي بدأت تنفد، وطلبات الأولاد لا تنتهي.

ماذا علي أن أفعل؟

سأنتظر... ربما اتصل قريباً. سأطلب منه أن يرسل نقوداً لسد احتياجات البيت والأولاد.

يا إلهي!

لقد نسيت أن اليوم موعد حفل زواج ابنة جارتي أم محمد التي تسكن أول الحي، وقد دعتني إلى حفلة الحناء والدخلة.

جاءتني أم سليمان بعد صلاة العصر للذهاب إلى بيت العروس وأداء الواجب.

حين وصلنا هناك وجدنا نساء الحي سبقننا إلى هناك.

ما زالت العروس تتزين عند خبيرة التجميل(الكوافيرة)، وصوت الأغاني يصدح والكل يصفق وهناك صبيتان ترقصان في المنتصف . الجميع يلبس الملابس الجديدة ،الحلي .والذهب.

مع دخولنا أطلقت أم سليمان الزغاريد والمهاهاة لتحية بيت العروس.

هاااا هي، يا وجه القمر!

هاا هي، والغايب من أهلك حضر

هاااا هي، وما غايب إلا الشيطان

هاااا هي، وما حضر إلا الوزر

لولولولو لييييي

هااااا هي، يا قاعدة عالمراتب قعدة البنا

هاااا هي، والكحل بعيونك زقفتلوا غنا

هاااا هي، حطي القدم عالقدم ما سمعتلو رنا

هاااا هي، يجعل البطن إلي حملك مسكنو الجنة

لولولولو لييييي

ردت جميع النساء الجالسات بالزغاريد بعد أم سليمان. جلسنا وبدأت كل النسوة يرقصن، واحدةً تلو الأخرى لمجاملة أم العروس.

ثم دخلت العروس الصالة فبدأت النسوة يطلقن الزغاريد ويوسعن الساحة لها لترقص، وسط تصفيق الجميع.

كانت جميلةً، فاتنةً، تلبس فستان زفاف أخضرَ مطرزاً بالخرز اللامع، رائع الجمال.

استمر الرقص إلى أن جاء أهل العريس. كانت أم العريس تحمل على رأسها سبت كبير فيه السكر والليمون والشراب وأكياس الحناء والكثير من الورود وغصون الريحان.

توسطت الجميع، وبدأت ترقص، متباهيةً بحمولتها، هديةِ عروسة ابنها.

قامت العروس، وقبّلت يد حماتها، ورقصت معها والنسوة يصفقن ويزغردن.

كان حفلاً رائعاً استمر حتى وقت متأخر، صُنعت في نهايته خلطة الحناء، ومدت الصبايا أيديهن لتحنيتها، وكذلك الأطفال، وكل من أراد.

في بيت العريس أيضاً تأتي أم العريس بعد عودتها من بيت العروس بوعاء كبير من الحناء لمكان احتفال أصدقاء العريس به وتوزع الحناء على جميع من يرغب منهم وسط الرقص والغناء ومواويل الدحية.

عدت للبيت متعبةً. أوصلتني أم سليمان إلى باب البناية، وهي تأكد علي أن أجهز نفسي باكراً للذهاب لمساعدة أم العروس في هذا اليوم السعيد.

كنت أريد الذهاب للنوم مباشرةً من شدة التعب. وجدت أن الأولاد ما زالوا مستيقظين، فصنعت لهم العشاء، وأنا لا أكاد أقوى على الوقوف. تناولوا الطعام وذهبوا للنوم، وأنا ذهبت لتنظيف المطبخ قبل أن آوي إلى فراشي.

فكرت أن أصنع فنجان قهوة، وأتفقد البريد لعل عماداً يكون قد اتصل أو أرسل رسالةً.

ما إن جلست على الطاولة حتى سمعت طرقاً خفيفاً على الباب؛ استغربت. أيعقل أن تكون أم سليمان قد نسيت أن تخبرني شيئاً بخصوص يوم غد؟

.من بالباب؟

لم أسمع جواب، فشعرت بالخوف فجأةً.

.من الطارق؟

سمعت صوته المخيف يهمس:

.أنا جاركم. زوجتي وداد مريضة، وتريد حبة مسكن.

.يا إلهي!

تمالكت نفسي، وأجبته باقتضاب:

.لا يوجد عندي مسكنات.

عاد للطرق ثانيةً.

.ولكنها مريضة جداً، وتحتاج مساعدةً. هل لك أن تجلسي معها حتى أعود لها من الصيدلية بالمسكن؟

.أعتذر. لا أستطيع ترك أولادي في هذا الوقت المتأخر. رجاءً، ارحل من هنا.

.ولكن البيت قريب؛ لن يحدث لهم شيء، وإن استيقظ أحدهم فستسمعينه فوراً. هي خدمة لمريض.

لولا تحذير وداد لي لصدقته فيما يدعي.

.لو سمحت، ارحل من هنا.

. إذن، أنت تدّعين دور الشريفة هنا. أيتها القحباء، افتحي الباب وإلا خلعته. أعلم أنك تشتاقين إلى رجولتي بعد أن تركك زوجك المخنث، ولكنك تتمنعين لأزداد رغبةً بك. نجحت بمسعاك، يا جميلتي، وها أنا أرغب بك بقوة.

يا ألله، سترك!

دموعي بدأت تهطل من شدة الخوف.

ماذا علي أن أفعل؟

هل سيخلع الباب بالفعل؟

أتمنى ألا يستيقظ أحد الأولاد ويسمع كلامه القذر؛ سيشعر بالخوف قطعاً.

ماذا أفعل؟

أين وداد؟

بدأ يرج الباب بقوة؛ عدوت ناحية المطبخ، وتناولت سكيناً كبيراً من هناك وعدت لأقف خلف الباب، وأنا أرتجف بشدة. أمسكت السكين بقوة حتى لا يسقط.

فجأةً اختفى صوته، وصوت اهتزاز الباب.

لحظة صمت، ثم سمعت صوت تمتمة وداد. كانت تتكلم بكل هدوء، ولكنني لم أسمع ماذا قالت.

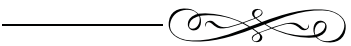

نظرت من ثقب الباب بحذر، فوجدت وداد تضع حافة سكين على عنقه، وتحثه على الرجوع إلى الخلف.

عيناه مفتوحتان على وسعهما، وهو يتراجع ناحية بيتهما.

دخل بيته فدخلتْ بعده، ثم أغلقت الباب بيدها اليسرى.

رفعت نظري عن ثقب الباب ونظرت ليدي التي تحمل السكين ورميته بسرعة على الأرض، ثم سقطت خلفه على ركبتي أنتحب بصمت.

لا أدري بعدها كيف وصلت لفراشي وغفوت.

في الصباح استيقظت على طرق أم سليمان على الباب. جرجرت جسدي حتى وصلت للباب وفتحته؛ صرختْ مذعورةً، وكأنها رأت شبحاً.

. ماذا حدث لك؟ لونك أصفر شاحب، وعيناك متورمتان. لماذا أنت على هذه الحالة المزرية؟

. لا شيء. أصابني بعض الغثيان ليلة أمس بعد أن عدت من العرس. يبدو أنه إرهاق وبعض البرد...

لم تسمع بقية الجملة. ردّدت كلمة غثيان بشك.

"حين تظن أنك بلغت مرحلة الملوكية فإنك لا تلتفت، ولا تعقب. تبتسم للأشياء التي حولك. حتى الدمعة، لا تقترف بها ذنباً.

تسكن قاعات المدينة الفارغة... تحتسي قهوتك بتلذذ بليد... تكمم فاه التنهد، وتمضي كأن كل ما حولك فقط ظلال.

وعند منعطف ما، في لحظة، سقطت من جيب الزمن أو كلمة خرجت من كتاب مقدس...

تجد أنك عار تماماً، لا حول لك ولا قوة..

تتحسس ملامحك، فلا تجد الطريق أبداً... تعود طفلاً باكياً يريد أن يلوذ بزاوية ما، يفرغ سنين العمر بشهقة.

يسكب حقائبه...

يبعثر الأسماء... الضحكات... الدموع... وحتى الصمت الذي داخله...

ثم يقف ليرقص... يرقص حتى التعب."

رمقتها بنظرة أصابتها بالارتباك:

. لا أقصد شيئاً، يا حبيبتي. هيا، هيا، اذهبي للاغتسال وتغيير ملابسك. سأكون قد أعددت لنا فنجانين من القهوة فتعودين لحالتك الجميلة.

. حسناً.

يا إلهي! يبدو أن الأولاد خرجوا للمدرسة، وأنا نائمة، كما العادة. يا لي من أم سيئة!

خرجت من الحمام، وأنا أشعر فعلاً ببعض التحسن. وضعت القليل من مساحيق التجميل على وجهي، أنشد إخفاء علامات الخوف والارهاق.

خرجت من غرفتي لأشرب القهوة ونذهب لبيت العرس، كما تواعدنا.

حالما رأتني أم سليمان لوت شفتيها.

. لم كل هذه الزينة، غاليتي؟

. زينة؟ أية زينة؟ لم أضع إلا الكحل والقليل من لون الخدود لأخفي اصفرار وجهي.

. لا أقصد شيئاً، عزيزتي. أنت تعرفين كلام الناس؛ فأنت جميلة، بطبيعة الحال. لك عينان جذابتان، وقوام رائع.

لون بشرتك الحنطي وصفاء بشرتك يحسدك عليهما الجميع؛ فلا تحتاجين لفت المزيد من الانتباه. خذيني مثالاً: منذ توفي أبو سليمان لم أضع الكحل قط حتى لا يظن أحد بي السوء.

. وهل أصبح الكحل شبهةً؟

obeikandl.com

. نعم، عندما تتزين المرأة في غياب زوجها، فهذه شبهة. أتكلم لمصلحتك؛ سيكثر حولك القيل والقال.

. لن أمسح الكحل، يا جارتي. وسأذهب للعرس كما أنا الآن؛ لا يهمني أحد؛ فأنا أعرف نفسي جيداً.

وأضفت بلؤم متعمد:

.وأنا لست أرملةً مثلك.

أضفت بسخرية:

. أنا ما زلت على ذمة رجل. ولو كنت أرملةً فلن أدفن عمري مع من رحل.

رسمت ابتسامةً ثابتةً على ثغري، وجلست في الحفل أجامل الجميع، وأصوات الطبل تدق في رأسي كما المطرقة.

صوت زفة العريس اقترب فخرجت النساء للشرفات والنوافذ، يحملن الحلوى والورود لرميها على موكب الزفة حين يمر.

العريس يجلس على حصانه بكل أناقة، والرجال حوله يدقون الطبول والنسوة يرششن العطور في الهواء، والأطفال يتسابقون لجمع الحلوى.

والكل يغني للعريس... الهيلمان الهيلمان

الهيلمان على تمو، يا تمو خاتم سليمان

الهيلمان على طولو، ياطولو عود الريحان

الهيلمان على عيونه، يا عيونه فتح الفنجان

الهيلمان على شعرو، يا شعرو حبل الجمال

الهيلمان على سنو، يا سنو لولو ومرجان

الهليمان على صدر، هيا صدره بلاط الرخام

ازرع واقلع باذنجان .. يلعن راس أبو الزعلان

هكذا استمرت الأغاني من الأصدقاء حول العريس...

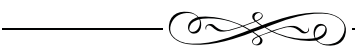

obeikandl.com

مرت الزفة، وعاد الجميع للجلوس، وبدأ مد طعام الغداء، كما العادة...

وضعت صواني اللحم والأرز أمام الضيوف، وبدأ الجميع يأكلون...

لم يكن ابتلاع الطعام بالأمر الهين؛ تظاهرت بتحريكك فمي لأتفادى نظرات أم سليمان غير المريحة.

انتهى الجميع من تناول الطعام.

نظفت النساء مكان الأكل وغسلن الأواني، فوجدتها فرصةً للهرب داخل المطبخ والانشغال في التنظيف.

غسلت وجهي عشرين مرةً لأبقى صامدةً، وكي تبقى الابتسامة مرسومةً على وجهي.

خرجت لشرفة المطبخ، أستنشق بعض الهواء.

الرجال في الخارج يجلسون حول والد العروس وإخوتها، بينهم الجيران والأقارب. استدرت لأعود للداخل حتى لا ألفت انتباه الرجال لوجودي هناك، فاستوقفني وجه كان مطبوعاً دائماً في ذاكرتي...

شادي!

أيعقل هذا؟

هل هذا هو بالفعل؟

كان يحمل على ركبتيه طفلاً صغيراً أشقر، رائع الجمال، يلاعبه بكل حب.

وجهه ما زال وسيماً، كما أول مرة رأيته فيها.

يحتفظ بالابتسامة الدافئة نفسها...

هل سيعرفني إن رآني الآن؟

متى عاد؟ ولماذا عاد؟

لم هو الآن أمامي، في هذا الوقت بالذات؟

أسئلة تلاحقت في رأسي كالمطر...

obeikandl.com

آه، يا وجعي!

وكأنه سمع تنهدي فاستجاب؛ التقت عيناي بعينيه، كما أول مرة.

ظل ينظر إلي دون أن يهتز له رمش، ودون أن يحرك رأسه؛ كأنه يظن أني مجرد خيال سينتهي عند أول التفاتة.

انتفضت على صوت أم سليمان، تنادي من خلفي، فدخلت للمطبخ مسرعةً حتى لا أمسك متلبسةً في أحلامي.

"نحن عابرو سبيل، ولا حق لنا ربما بمحاسبة الحياة أو حتى تحدي الموت؛ علينا أن نرضى بما تمن علينا به الطرقات. تلك أقدار، ولكنني أرى أن لنا الحق في أن نصنع من الظلال حلماً نعيشه. لا أعتقد أننا سنحاسب عليه، ولكننا سنصنع به النجاة لأرواحنا... "

. أنا هنا، يا جارتي. خرجت لأستنشق بعض الهواء بعد أن شعرت ببعض الإعياء.

نظرت إلي بريبة ثم قالت:

. ادخلي؛ الرجال كثر في الخارج؛ ووقفتك هنا ستلفت انتباههم. هيا لنشارك أم محمد فرحتها.

لم أجادلها، أردت أن أستبقي نكهة النظر لوجه شادي.

عدنا للداخل. كان الجميع يصفق. وهناك فتاة جميلة رائعة القوام ترقص في المنتصف. وحين التفتت ناحيتي... يا للمفاجأة! إنها عبير، صديقة الطفولة. انقطعت أخبارها عني منذ مدة طويلة.

فاجأت نفسي بأن تقدمت للرقص معها.

ربما هو تأثير النظر لوجه الحبيب بعد غياب عمر بأكمله.

عبير، ومنذ كنا طفلتين، تعاني الوزن الزائد. تحب الكعك كثيراً، حتى إنها يوماً دخلت المطبخ وأغلقت الباب من الداخل، ولم تخرج إلا عندما التهمت كل الكعك الذي صنعته والدتها من أجل العيد.

كل الحارة يومها سمعت صراخ والدتها عليها...

لن تتزوجي أبداً ما دام هذا الكرش متدلياً أمامك...

ضحكت باستهزاء يومها، وقالت:

.لا أريد الزواج؛ سأبقى قربك لآكل كل الكعك الذي تصنعينه.

حين كبرنا لم يعد الأمر يضحكها، بل أصبحت تتطلع بنظرة الغيرة والحسد لكل فتاة تتزوج من رفيقاتها؛ فتضع بؤسها في التهام المزيد من الحلوى والكعك.

عبد المجيد، قريبها البعيد، تزوج ثلاث مرات، ولم يوفق في أية زيجة من زيجاته.

أنجب بنتاً من زوجته الأولى، وتخلى عنها مدعياً أنه يشكك في أبوته لها لأنها ولدت، وأمها في بيت أهلها بعد أن طلقها.

تقدم لخطبة عبير فوجدت فيه فرصتها الذهبية لتلبس ثوب الزفاف الأبيض، وأن تصبح أماً؛ فهذه كل أحلامها من البداية للنهاية.

تزوجت عبير، وكان عرسها بعيداً جداً عن أحلامها الصغيرة، فلم تحظ إلا باحتفال ضيق ضم الأهل والأصدقاء المقربون فقط بحجة أن العريس تزوج أكثر من مرة، وأنه لا يريد احتفالاً لا لزوم له.

هكذا تلاشى أول أحلام عبير، ولم تحظ بثوبها الأبيض.

كنت من بين الحضور، ورأيت الدموع المختنقة في عينيها والابتسامة الباهتة التي ترتسم من خلف غصة لا يراها إلا من يعرف عبير جيداً.

بعد الرقص جلست، وجلست عبير بجواري.

أبديت استغرابي بشكل صريح من التغيير الواضح في مظهرها.

هل هو تأثير الزواج؟

ضحكت بلا مرح:

. نعم، هو بالتأكيد تأثير الزواج. سأرضي فضولك، وأدعوك غداً إلى تناول فنجان من الشاي وبعض الكعك عند أمي لنتحدث. دعينا الآن نستمتع بالحفل.

دخلت العروس بثوبها الأبيض الرائع فبدأت الزغاريد والمهاهاة تنطلق من أفواه النساء لاستقبالها، وكل منهن تحاول مسابقة الأخرى لمجاملة أم محمد، والدة العروس.

هاا هيي

ارقصي، وديري ظهرك

هاا هيي، وارخي جدايل شعرك

هاا هيي يسلمك، يا أميرة

هاا هي، يا مبيضة شاشات أهلك

لولولولو ليييييييي

هاا هي طبخنا ملوخية

هاا هيي وحنا الفلسطينية

هاا هيي ولي ما بحبك، يا أبو محمد

هاا هيي تصيبوا سكتة قلبية

لولولولو ليييييييي

رقصت العروس وسط التصفيق والأغاني، تتباهى بجمالها أمام الحضور، ثم جلست على كرسيها المزين، تنتظر قدوم العريس لأخذها لبيته.

جاء والد العروس وقبّلها على جبينها، وعيناه تمتلئان بالدموع...

ثم تأبط ذراعها استعداداً لتسليمها لعريسها الذي ينتظرها في الخارج بلهفة.

خرجت العروس بعد أن قبّلت يد والدها ووالدتها التي كانت تشهق بالبكاء حزناً على خروجها من البيت الذي تربّت فيه عمرها كله، لكنها كانت دموع فرحها بزواجها أيضاً.

العروس كانت تغالب البكاء حتى لا تتلف مساحيق الزينة على وجهها.

خرج الجميع خلف العروس للذهاب لبيت العريس واستكمال الاحتفال هناك.

كنت أتلفت يمنة ويسرى قبل صعودي للسيارة لعلي أرى شادياً مرةً أخرى...

ربما كان وجوده محض خيال وهذيان!

وصل الموكب لبيت العريس، واستؤنف الاحتفال هناك مرةً أخرى، واستمر حتى منتصف الليل.

حين انتهى الاحتفال بدأ الجميع يغادرون، كلٌّ إلى بيته.

النساء في الطريق العودة تحدثن عن كرم أهل العريس وجمال العروس، وبعضهن حسد أم محمد على حظ ابنتها الأبيض في الزواج. ومنهن من وجدت أن ابنتها كانت أحق بعريس "لقطة" كهذا.

عندما وصلت باب البناية التي يوجد بها بيتي رجوت أم سليمان أن تصعد معي لشرب فنجان من القهوة، لكنها كانت متعبةً، تريد الذهاب لبيتها مباشرةً. رجوتها كثيراً حتى وافقت؛ كنت أشعر بخوف شديد من صعود درج البناية وحدي.

انتهت بسرعة من شرب قهوتها وغادرت لأن الوقت تأخر. ودّعتها وأحكمت إغلاق الباب خلفها، وعدت أكثر من ثلاث مرات لأتأكد من ذلك.

ذهبت لأتفقد الأولاد في نومهم. ثم أخذت دوشاً سريعاً، ودخلت لأستلقي في فراشي...

تمددت، أطالع السقف...

هل كان هناك حقاً؟

السؤال يلح علي...

"قسوة اللحظة ترمي بنا دائماً مسافات بعيدةً، لزمن دس في الذاكرة تحاشينا دوماً البحث عنه.

حين تضع مدخراتك كلها على الطاولة لتبحث بينها عن العملة الذهبية التي لا تبور فلربما وجدت أن كل ما لديك عملات انتهت صلاحيتها، وأنك مفلس تماماً.

وفجأةً تلمع من بينها عملة الحظ التي أهدتك إياها الحياة يوماً."

obeikandl.com

الفصل الثالث

كانت بداية العام الدراسي. سجلت أنا وصديقتي مروة في دورة لغة إنجليزية. أردنا النجاح ودخول عالم الجامعة الخيالي الذي طالما حلمنا به.

صادفته هناك. كان من بين طلاب الدرس...

كان أنيقاً، هادئاً، لا يشبه أياً من الجالسين هناك. يمتلك عينين تخترقانك حالما تنظران إليك.

التفت إلينا فور دخولنا غرفة الصف، فشعرت أن نظراته تحرق وجهي.

لم أكن قد نظرت باتجاهه، ولكنني أحسست بنظراته لم تفارقني حتى دخول الأستاذ غرفة الدرس وبدء الشرح.

توجه تركيز الجميع للشرح وبدأوا بتدوين كل ما يكتبه على السبورة. استغللتُ انشغال الجميع، وبدأت أتأمل في ملامح وجهه.

كان رائعاً، بوجهه الأسمروشعره الأسود اللامع. له رموش طويلة وغمازة تظهر على جانب وجهه حين كان يوجه سؤالاً للأستاذ.

ابتسمت لتفاصيل وجهه الجميلة. التفت فجأةً ناحيتي وأمسك بي متلبسةً، أتأمله. كنت ما زلت أبتسم، فرسم بدوره ابتسامةً جعلت قلبي يصعد للسماء، يشرب من غيمة حتى يرتوي ويعود ليرفرف بأجنحته.

ارتبكت وخفضت رأسي خجلاً، محاولةً الكتابة كما باقي الطلاب، ولكن سدًى. لم أكن أسمع أو أرى أية كلمة على السبورة.

ما اسمه؟ أين يسكن؟ من هو؟ كانت هذه الأسئلة هي كل ما يشغلني.

أتم الأستاذ الشرح، وجمع أوراقه استعداداً للمغادرة.

.أراكم غداً، وقد أنجزتم حفظ ما شرحته اليوم.

قال هذا وخرج.

بدأنا نجمع حاجياتنا استعداداً لمغادرة المكان. سمعت صوتاً أجش يقول:

.هل كتبتم ما دوّنه الأستاذ على السبورة؟

علمت أنه مَن تكلم دون أن أنظر. كان صوته عميقاً هادئاً، سمعته بقلبي قبل أذنيَّ.

يا إلهي! ماذا يحدث؟

ردت مروة عليه بوقاحة كعادتها.

.نعم كتبناه، ولا وقت لدينا لنعطيك إياها لتنسخه. هل تريد شيئاً آخر؟

رد بإصرار، ونظراته مركزة علي، ولم يكن يعيرلرد مروة أي اهتمام.

.هل كتبت أنت أيضاً؟

هذه المرة يجب أن أرد. يبدو أنه مصر أن يسمع صوتي، لكن مروة ردت مرةً أخرى.

.نعم، كتبتْ. والآن، هل تأذن لنا؟

.أنا أسأل صديقتكِ. تستطيع الرد وحدها.

.وأنا أجيب عنها وعني. هل لديك مانع؟

قالتها بتأفف واضح.

علمت بأن علي أن أقول شيئاً، وإلا فإن مروة ستصل بالأمر إلى حد المشكلة.

.لا، لم أسجل كل شيء، ولكنني سأستعين بما كتبته صديقتي.

لا أعرف كيف انبثق صوتي، يحمل هذه الكلمات.

نظرت مروة إلي باستهجان، معاتبة ليً بسبب حديثي معه، كأنها تقول لي: ألم أرد عليه؟ لماذا تكلمت الآن؟

أما هو فكان ينظر إلي بتركيز، كأنه يريد أن يسجل كل كلمة نطقتها.

obeikandl.com

. أنا شادي، عمري خمسة وعشرون عاماً، سنة ثالثة جامعة. أدرس اللغة الإنجليزية. سجلت في هذه الدورة لأتمكن من بعض النقاط في قواعد اللغة. إذا أردتما أية مساعدة فسيسعدني توضيحها لكما.

كان يوجه كل حديثه لي.

.هل هناك حفل تعارف هنا؟ ابتعد لو سمحت؛ نريد المغادرة.

تكلمت مروة بنفاد صبر.

انتظر أن أقول له اسمي، ولكنني بقيت صامتةً. جرتني مروة وانسحبنا دون أن يحاول إفساح الطريق، بل ظل واقفاً في مكانه.

في طريق العودة ثرثرت مروة كثيراً عن تفاهة بعض الشباب ومحاولاتهم البائسة في لفت أنظار الفتيات.

. يا له من متعجرف! أكان يظن أننا سنقفز فرحاً لأنه عرض مساعداته اللغوية علينا؟ وأننا سنعطيه أسماءنا وعناويننا أيضاً؟

قالتها باستهزاء.

.لعله لم يقصد سوءاً، فهو علي أية حال لم يتجاوز حدوده في الحديث.

حاولت الدفاع عنه، فنظرت إلي غير مصدقة ما قلت؛ فهي تعرفني جيداً، وتعرف أني لا أحب العبث أبداً.

.وماذا كان يقصد في رأيك، ست ماجدة؟

تلعثمت وقلت:

. ما أدراني؟ اتركينا من سيرته الآن، وتعالي لشرب كأس من الشاي بالمرمية سأصنعه لعينيك الجميلتين تحديداً.

.حسناً، أيتها اللئيمة! تعرفين دائماً نقطة ضعفي.

دخلت معها البيت. كان أبي نائماً كما عادته في هذا الوقت، وأخي توفيق يجلس أمام التلفاز يدخن الأرجيلة.

وقف حين دخولنا، ونظر فوراً إلى مروة.

.أهلاً، مروة. كيف حالك؟

.أهلاً بك، أخي توفيق. كيف حالك أنت؟

كنت ألاحظ دائما توتر توفيق حين يرى مروة، فيصبح كطفل صغير لا يحسن التصرف أو الكلام رغم أن هذه ليست طبيعته.

لم تكن مروة توليه أي اهتمام أو تنتبه على مشاعره ناحيتها. وكان هذا يزيد من غضبه علي حالما تغادر مروة كأنه يحملني وزر عدم اهتمامها به.

دخلنا غرفتي، وأغلقنا الباب خلفنا، وبدأنا ثرثرتنا المعتادة عن أحلامنا وأمنياتنا المجنونة. كنا نضحك بلا سبب، نصمت عن الكلام بلا سبب، فقط لأننا أردنا ذلك.

أحياناً نحتاج شخصاً نتوارى فيه حتى لا يرانا العالم القبيح.

مروة كانت ملجئي دوماً.

بعد مغادرتها وجدت توفيق يقف في منتصف الصالون، والغضب يقفز من عينيه.

.أين كنت، أنت والست مروة؟

.سجلت في دورة للغة الإنجليزية لأني أحتاجها في دراستي.

.ومن أذِن لك بذلك؟

.أنا من أذِنت لها بذلك، يا بني.

قال أبي ذلك وهو يخرج من غرفته ليجهز نفسه للذهاب إلى الجامع لصلاة المغرب.

أبي أرى أنه لا لزوم لهذه الدروس. وماذا ستستفيد منها؟

على أية حال، البنت مكانها بيت زوجها.

كان يردد هذه العبارة دوماً على مسامعي.

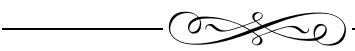

لكنني لا أريد الزواج الآن؛ أريد أن أتابع تعليمي، وأن أدخل الجامعة.

.الله، الله! هذا كلام جديد!

.يكفي هذا الجدال!

نهرنا أبي وقال:

.أنا من يقرر هنا، وأنا سمحت لها، وانتهى الأمر.

رغم كل مساوئ توفيق إلا أنه يحترم قرارات أبي ولا يجادل فيها.

خرج أبي للصلاة وعدوت لغرفتي قبل أن يبدأ توفيق من جديد جدالاته التي لا تنتهي.

تمددت على فراشي، وبدأت أفكر فيما حصل اليوم.

ربما لم يحصل شيء... يا لي من بلهاء!

تذكرت الدرس، ونهضت بسرعة لنسخ الأوراق التي تركتها لي مروة، وحفظتها غيباً.

لاحظت أن اللغة الإنجليزية لغة سهلة وسلسة، يا للغرابة! لماذا لم ألاحظ ذلك من قبل؟

في اليوم التالي انتظرت أن تمر الساعات ليحين موعد الدرس.

ذهبت لبيت مروة قبل موعد الدرس بساعة أستعجلها خوفاً أن نتأخر عن الموعد، ولم أسمح لها بإتمام طعامها، فأخذت معها ساندويشاً وأكلته في الشارع.

.سأقتلك!

هكذا قالت لي وفمها مملوء بالطعام.

ضحكت كثيراً لمنظر تكور فمها من كثرة الطعام المحشو داخله. لم تكن مروة من النوع الذي يهتم برأي أحد. كانت تفعل ما تريد، في الوقت الذي تريده.

كنت شديدة الاعجاب بها؛ حاولت دائماً أن أصبح مثلها، ولكنني لم أفلح يوماً.

بقيت كما أنا، الفتاة الخجولة التي تعطي رأي الآخرين الاهتمام، حتى لو كان على حساب رغباتها.

مروة فتاة جميلة بطريقتها الصريحة والعفوية؛ بيضاء، ممتلئة الجسم بغير افراط، قريبة للقلب، تمتلك وجها آسراً.

مسحت فمها بظهر يدها. كنا قد وصلنا إلى مكان الدرس. لم أنتبه المرة السابقة على شكل المكان.

كان بيتاً يتكون من طابقين، مطلياً بالدهان الأبيض. في أعلاه عُلقت يافطة كبيرة كُتب عليها "مؤسسة اقرأ لدروس اللغة". يبدو أنهم يعطون دورات في لغات أخرى غير الإنجليزية.

أمام المبنى هناك حديقة صغيرة لها بوابة حديدية خضراء اللون. كان الطلاب ينتظرون فوق الحجارة الكبيرة المبعثرة هنا وهناك في الحديقة قبل الدخول للدرس.

لم يكن قد وصل أحد حين دخلنا من بوابة الحديقة.

.ألم أقل لك إن الوقت ما زال باكراً؟

تلفتُّ حولي، أبحث عنه. يبدو أنني وحدي من كان ينتظر الموعد بلهفة.

شعرت بالإحباط والحزن.

.نعم. يبدو ذلك.

قلت لها بصوت مستسلم.

.هل جئتما باكراً، مثلي؟

هذا السؤال أعاد الحياة لقلبي المراهق. تمالكت نفسي حتى لا أقفز أو تظهر على وجهي علامات الفرح. التفتنا إليه، أنا ومروة. كان ينظر إلي، ويبتسم بمرح واضح.

. نعم، الأستاذة ماجدة خافت أن يفوتها الدرس فأخرجتنا قبل الموعد بساعة.

اتسعت ابتسامته.

.وأنا أيضاً خفت أن يفوتني الدرس، مثل ماجدة تماماً.

قالها بقصد، وضغط على حروف اسمي حين نطقها فخرج بنكهة خاصة لم أتذوق مثلها من قبل.

أصبح الوقت القليل الذي يسبق بداية الدرس هو موعدنا الذي نقتطعه من الحياة. ويبدو أن مروة شعرت بما يدور، مع أنها لم تفتح الموضوع معي قط. كانت تعرفني دون حديث، فاعتادت أن تترك لنا الدقائق التي تسبق الدرس، وتذهب لتتمشى في حديقة المبنى.

تكلم عن أحلامه، وأنه يريد أن يصبح مدرس لغة إنجليزية بعد تخرجه، وأنه يريد أن يتابع دراسته، ويحصل على الماجستير؛ فهو يطمح للعمل في الخارج.

عرفت أنه أكبر أخوته، وأن له أختين أصغر منه وأخاً ما زال صغيراً. والده يعمل ناظر مدرسة، ويريده أن يصبح مثله في المستقبل. ولكن طموحه هو أكبر من ذلك.

حدثته عني وعن أحلامي الصغيرة بدخول الجامعة ودراسة الأدب العربي لأني شغوفة به جداً.

حدثني عن حبه للشعر، وخاصةً الشعر النبطي.

كتب لي يوماً مقطعاً صغيراً ودسه في دفتر الدرس خاصتي.

بحبك

بحبك عدد لهفات النجوم للمسا

بحبك عدد طيات السما .. بحبك قد عشاق القمر

وسهارى الشوق والجوا .. بحبك، ولهفة عيوني مالها دوا

obeikandl.com

مرت الأيام بسرعة كبيرة حتى جاء اليوم الأخير للدورة الدراسية.

الغصة في حلقي تكاد تخنقني! لن أراه بعد اليوم! هكذا فكرت. لم يتطرق للموضوع أثناء حديثنا المعتاد كأنه لا يريد أن يذكر الوداع. وأنا بدوري استمعت لحديثه بهدوء زائف.

هل ستنتهي جلساتنا البريئة التي نسرقها من جيب الحياة اللئيمة؟

كان عصبياً طوال فترة الدرس. لاحظت كيف كان يقلّب القلم بين أصابعه. لم يكتب أية كلمة على الأوراق أمامه.

عندما انتهى الدرس مر بجانب طاولتي ودس ورقة تحت دفتري، ومضى.

رجاءً، لا تبتسمي لأحد كما ابتسمت لي، وانتظريني.

أخرجت الورقة من دفتري مائة مرة، وقرأتها ألفاً، وقبّلتها وشممتها ألفاً أخرى.

قبل أن أغفو أردت أن أدسها داخل قلبي حتى لا يراها العالم القذر...

أخي توفيق دائماً ما يفتش أغراضي: كتبي وملابسي بحثاً عن إثبات يقدّمه لوالدي ليثبت أني منحلة، كما يقول عني دائماً، فيخرجني من المدرسة.

كان فعلها من مدة طويلة لولا أن أبي اعترضه دائماً، ودافع عني.

.ستجلب لنا العار، ابنتك المدللة هذه، ولن يفيد الندم بعدها!

لم أبك يوما من كلماته الجارحة لي لأنني أعرف ما يريده بالضبط؛ أن يزوجني ليتخلص مني، ويصبح البيت ملكه وحده. أحياناً أشعر أنه ينتظر وفاة أبي ليفعل ما يحلو له. كنت دائماً أرتعد من فكرة الموت وأرتجف لو خطرت لي لحظةً.

أخفيت رسالة شادي لي والورقة التي كتب لي فيها الشعر داخل وسادتي وخِطتها حتى لا يتمكن من العثور عليها مهما بحث في غرفتي.

لست جبانةً، ولكنني كنت أتركه يفعل ما يشاء حتى لا أزيد إصراره على التخلص مني.

مرت الشهور بسرعة؛ كنت أرى خلالها شادياً ينتظر صباحاً عند باب المدرسة ليراني من بعيد دون أن يحاول الاقتراب قط حتى لا يسبب لي أي أذى.

كان الشوق يقفز في المسافات التي تفصلنا. يده تلامس يدي بنظرة واحدة منه لعينيَّ.

وعند موعد انتهاء الدوام المدرسي أجده ينتظر في المكان نفسه، يمشي بمحاذاتنا، أنا وصديقاتي، دون أن يحاول لفت انتباه أحد.

يستمر معنا حتى أصل إلى الشارع الذي يقع فيه بيتي ويذهب.

جاء موعد الامتحانات النهائية، ولم أعد أراه إلا صباحاً. يبدو أنه منشغل في امتحاناته أيضاً. على الرغم من ذلك لم ينقطع عن موعده معي في الصباح قط.

جاءت نهاية الامتحانات؛ يبدو أننا سنفترق هذه المرة بدون أية امكانية لرؤيته، ولو من بعيد.

مر أسبوعان على نهاية آخر الامتحانات لم أره خلالهما.

في المساء كان يحملني الشوق لأحاديثنا البريئة حتى حجارة الحديقة فأبتسم وأخرج سري الصغير من الوسادة لأتفقد كلماته لي فأضمها وأغفو.

اليوم موعد استلام نتائج الثانوية العامة.

منذ الصباح، ومروة عندي، يقتلنا القلق والانتظار. تواسي إحدانا الأخرى؛ نضحك تارةً، وتارةً نصمت.

أبي أيضاً كان متوتراً جداً، وينتظر خبر نجاحي على أحر من الجمر.

أما توفيق فكان يحوم حول الغرفة كالثعلب الذي ينتظر الانقضاض على فريسته. لم أعره اهتماماً. جهّزت نفسي، وقبّلت رأس أبي وذهبنا أنا ومروة للمدرسة، والخوف يصاحبنا.

كان هناك، يجلس في مكانه المعتاد. حين رآني قفز من مكانه كأنه يريد أن يضم الكون كله بين ذراعيه لأكون قربه فقط.

يا إلهي! كم اشتقت إليه!

دخلنا المدرسة، ودخل خلفنا. ضغطت مروة على يدي، تريد أن تنبهني على وجوده، ولا تعلم أن روحي تلقاه قبل عينيَّ.

يبدو أنه يريد الاطمئنان على نتيجتي. كان يقف خلفي مباشرةً، فشعرت بأنفاسه تلمسني. لم أكن أشعر بشيء سوى قربه، وقربه فقط.

هتفت مروة:

. ألف مبروك، حبيبتي! أنت٨٤ % وأنا ٦٨%.

كانت تضحك وتبكي في الوقت نفسه. شعرت بذراعيه تحتضنني دون أن يتحرك. لم يستطع أن يقل لي مبارك جهراً، لكنني رأيتها في عينيه؛ رأيت الحب والشوق والدعاء وكل المشاعر التي أحتفظ بمثلها له في قلبي.

ذهبت مروة دقائقَ لتفقد صديقاتنا، والمباركة لهن بالنجاح.

همس:

. أشتاق إليك جداً. أشتاق إلى أحاديثنا الصغيرة... إلى عينيك، ضحكتك، كلك! أحبك، أحبك وأريدك.

يا إلهي! هل قالها فعلاً؟ لم أشعر أنني أقف على الأرض، حملتني خفة غريبة، ولم أستطع النطق مطلقاً.

. ستأتي أمي لزيارتكم اليوم. قالها،

ثم ابتسم، وغادر المكان.

نظرت إليه، وهو يغادر، فشعرت أنني ملكت الدنيا وما فيها.

هناك قلب ينبض لي فيها!

obeikandi.com

جاءت والدته فعلاً لزيارتنا، وكنت قد أخبرت أبي بذلك، فرأيت الفرحة في عينيه. لم يجبرني يوماً على شيء، وحين كنت أقول له إني أريد إتمام دراستي الجامعية كان يشجعني، لكنه كان يتوق دوماً أن يراني عروساً، ويطمئن علي لأنه يعرف جيداً أخي توفيق وقسوته.

استقبلها أبي بالترحاب وجلسنا نحن الثلاثة في صالون البيت، نشرب الشاي، ونتجاذب أطراف الحديث بود.

دخل توفيق علينا كالإعصار. رد السلام، وجلس فبادره أبي:

.هذه أم شادي، جاءت لزيارتنا لتبارك لأختك بنجاحها.

.أهلاً وسهلاً.

قالها باقتضاب.

.أهلا بك، يا بني. ردت عليه أم شادي

ألن تبارك بدورك لأختك على نجاحها وتفوقها؟ قال له أبي

نظر إلي بلا اكتراث.

. بماذا سينفعها هذا النجاح؟ البنت لبيت زوجها؛ الشهادات لا تسمن ولا تغني من جوع.

قاطعه أبي قائلاً:

. ما دمت قد فتحت الموضوع وحدك، فها هي أم شادي قد جاءت لطلب أختك لابنها الكريم.

وهو شاب رائع، وعنده كل المقومات التي تسعد من ترتبط به.

فكرت أن اليوم سيكون يوم سعد توفيق لأنه سيتخلص مني أخيراً.

لا يهم هذا. لا أريد سوى أن أكون مع شادي؛ هو يعلم حبي للتعليم، وسيشجعني على ذلك بالتأكيد.

هذه الأفكار كانت تدور في رأسي في وقت كان خلاله أم شادي وأبي ينتظران كلمة توفيق التي كنت موقنةً منها.

نظر أخي لوجه أم شادي ثم لوجه أبي، ولكنه استثناني من نظراته.

.لا يوجد عندنا بنات للزواج؛ أختي مخطوبة.

وقع كوب الشاي من يدي وارتطم بالأرض. صوت تحطم الزجاج نبهني.

.ماذا قلت؟ هل أنا مخطوبة؟ لمن؟ ومتى حصل ذلك؟

كنت أسأل، وأنا غير مصدقة ما قاله للتو.

وقفت المرأة، ولملمت ثوبها، وانصرفت دون أن تنطق بكلمة.

صاح أبي:

.ماذا تقول، يا بني؟ من أين جئت بأن أختك مخطوبة؟ ولمن؟

.لصديقي عماد. هو شاب متعلم، وأعرفه جيداً. له سمعة طيبة في المنطقة. تقدم لخطبتها مني، فوجدته مناسباً وأعطيته كلمتي بالموافقة.

.وأنا، هل وافقت؟ هل أخذت رأيي في الموضوع؟

.الله، الله! ومن أنت لنأخذ رأيك، ست ماجدة؟

.أنا صاحبة الشأن. ليس من حقك أن تزوجني دون حتى علمي بالموضوع، وأنا غير موافقة.

كانت دموعي تنهمر في حين ارتجف جسدي كله.

.وأنا وجدته مناسباً، وأعطيته موافقتي.

.وأنا لا أريده، ولن تستطيع إجباري على القبول.

.هل تكسرين كلمتي أمام الناس؟ هذه هي نهاية الدلال؛ أصبح صوتك يعلو في البيت، ولك رأي وكلمة. أتسمع ما تقوله ابنتك، يا أبي؟

التفتُّ إلى أبي فوجدته يلتقط أنفاسه بصعوبة، ولا يقوى على الكلام.

صرخت بهلع:

obeikandl.com

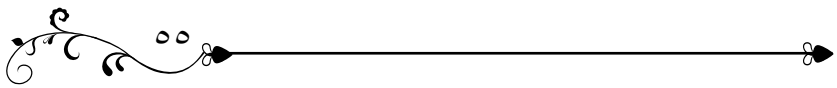

.توفيق، استدعِ الإسعاف بسرعة؛ أبوك يموت.

نُقل أبي إلى المستشفى، وأُدخل إلى غرفة العناية المركزة. أخبرنا الطبيب أنه أُصيب بجلطة كادت أن تودي بحياته، وأنه ما زال في مرحلة الخطر.

جلست خارج الغرفة، أنتظر خروجه، بلا دموع، بلا حياة.

منذ وفاة والدتي بسرطان الدم(اللوكيميا)وهو يعتني بي، ولم أكبر في نظره يوماً. كنت، وما زلت، طفلته المدللة، وكان هو طفلي الكبير، وما يزال.

حماني من قذارة العالم أجمع. وعلى نحو عجيب، كان توفيق يمثل الجانب الأكبر من قذارة العالم في نظري. لم يتعمد أبي يوماً إغضاب توفيق؛ فهو ابنه الوحيد، ويتيم الأم مثلي تماماً، ولكنه لم يسمح له بتجاوز حدوده معي أو فرض أي أمر علي رغم إرادتي.

توفيق يحسب لأبي ألف حساب؛ فعلى الرغم من قسوته، فقد كان يحترم أبي، ولكنه كان يمقتني لأني سرقت منه اهتمام والدتنا وحبها منذ ولادتي.

بعد يومين خرج أبي من غرفة العناية بشلل نصفي أيسر، وعجزٍ عن النطق والحركة.

نصحنا الطبيب بإبقائه بعيداً عن التوتروالانفعال للحفاظ على حياته.

"الحياة فيروس خامل يعيش داخلنا طويلاً، يعطينا الأمان، فنقارع الصخب الذي يحيط بنا بلا حساب للوقت أو ريبة بما سيحدث غداً. وفجأةً تنقلب المائدة، ونكتشف أنه حين خرج الفرح من مخبئه، وبدأ يفرد جناحيه ليتعلم الطيران، كان الفيروس قد نشط دون أن ندري، وأكل كل الأغصان في قلوبنا."

عاد أبي للبيت، وكرّست كل وقتي للعناية به.

انقطعت عن زيارة مروة، ولكنها لم تتركني قط.

مر شهر لم نتكلم فيه أنا وتوفيق إلا في الأمور التي تخص أبي وأدويته.

بدأت مع أبي رحلة العلاج الطبيعي، ولم أتهاون لحظةً في مساعدته للعودة للحياة.

وقد نجحت في ذلك بعض الشيء .

وعلى الرغم من كل ما كان يدور حولي، كنت أسرق من العمر لحظات لأقرأ رسائل شادي لأفكر فيه كرشفة نبيذ تأخذني نحو السماء.

استسلم أبي للنوم فتركته وجلست أمام التلفاز، أسلي وقتي ففُوجئت بتوفيق يجلس أمامي.

. موضوع الزواج من عماد لم ينته؛ أجلته وحسب، بسبب ما حدث لأبي.

لم أرد أو أعقب على كلامه. هو يعلم أني لن أثير المشاكل الآن خوفاً على حياة أبي. أصبحت الورقة الرابحة في يده.

بعد أسبوع جاء أهل عماد لخطبتي، وجلست قبالتهم لتتفحصني والدته وأخواته حتى يحكمن لها بالقبول.

وكانت الخطبة خلال أسبوع.

طوال الوقت تظاهرت بالسعادة أمام أبي، لكنني رأيت الحزن لا يفارق عينيه، وهو ينظر لي؛ كان يعرفني، ولم يصدق ادعائي السعادة.

كنت أعلم أنه يلوم نفسه لعجزه عن حمايتي كما فعل دوماً.

تزوجت بعماد في عرس كبير لم يكن لي فيه الحق حتى في اختيار ثوب زفافي؛ فحماتي تولت الأمر عني. ووجدت الثوب الأنسب وطلبت مني لبسه.

لم يكن الأمر ذا أهمية عندي. كنت كالدمية التي اشترك الجميع في تحريك خيوطها ليكون العرض كما يريدون تماماً.

جاء توفيق، ومد ذراعه لي ليخرجني من البيت ويسلمني ليد عريسي.

تجاهلته، ومنعته من إتمام المسرحية كما يريد تماماً، بل اخترت أن أتممها بطريقتي أنا، فأمسكت بالكرسي المتحرك الذي يجلس عليه أبي وخرجت به دون أن أنظر لأحد.

رأيت دموع أبي تغسل وجهه.

توقفت أمام الباب، ودرت حول الكرسي. لم أكن أسمع الضجيج الذي يدور حولي أو أعطيه أية أهمية.

جلست أمام أبي على الأرض، لا يهمني اتساخ ثوبي، لا يهمني العالم بأسره.

أمسكت كفيه، ووضعت وجهي بينهما، وقلت له مبتسمة :

.أنا بخير.

أمسك بوجهي بيديه المرتجفتين، وقبّلني من خلال دموعه بقوة.. أراد أن يقول سامحيني ولكنه لم يستطع

قبلت يديه ثم نهضت وسرت حيث كان عماد يقف عند سيارته. وقبل أن أضع قدمي داخل السيارة رأيته هناك يقف، بعينيه الفارغتين.

بلا دفء، بلا دموع، بلا أغنيات...

كانت تلك آخر مرة رأيت فيها وجه شادي.

وأغلقت قلبي...

****

أول صفعة في حياتي كانت ليلة الدخلة؛ لأنه لم يفلح في أداء واجبه فكان عليه عقابي على ذلك.

لم أبك أو أبد أية ردة فعل؛ بقيت أمثل دور الدمية إلى ما لا نهاية...

بعد شهر من زواجي توفي والدي، ولم يُسمح لي بإظهار الحزن عليه أكثر من يوم.

obeikandi.com

في اليوم الثاني للعزاء عدت لبيتي وفور دخولي قال لي وهو يرفع قدميه على الطاولة أمامه:

. استمعي إلي جيدا أنا لم أتزوج بك لتبكي وتنوحي في وجهي، ما زلت عريساً، وأريد أن أستمتع بوقتي. انزعي هذا اللباس الأسود عن جسدك، واذهبي لتضعي بعض المساحيق على وجهك العبوس هذا. أريد أن أستمتع بوجه حسن. هيا، اقتربي لتدلليني؛ فأنا أشتاق إليك.

لم أبك بعدها قط.

لملمت دموعي، وخبأتها في مكان سحيق داخلي لا تطاله عيناه أو عينا أحد ممن حولي.

فيما بعد علمت من مروة أن شادياً سافر في عقد عمل للخارج ليعمل مترجماً، كما كان يحلم دوماً.

ظل يؤجل توقيع العقد. وتحت إلحاح والدته، وافق أخيراً.

وسافر دون أن يلتفت إلى شيء...

دعوت له دائماً بالتوفيق وبالسعادة التي لم أحصل عليها معه.

في قلبي دعوة أهديها له كل يوم، في ظهر الغيب...

سجلت مروة في الجامعة كما كنا نحلم، ولكن تحقيق الحلم كنتُ أنقصه...

بعد ثلاثة شهور خُطبت لابن عمتها الذي يسكن في أمريكا.

وتزوجت به بعد أسبوعين من موعد الخطبة، على أساس أن تكمل تعليمها هناك.

كنت سعيدة جداً لمروة لأن إحدانا استطاعت أن تحقق جزءاً من الحلم الذي رسمناه يوما على جدران أرواحنا. ولكني، بسفرها، فقدت آخر الأحباب حولي.

غاب شادي ثم أبي ثم مروة...

وبقيت وحدي.

obeikandl.com

الفصل الرابع

نهضت من فراشي لأوقظ الأولاد كي يذهبوا إلى المدرسة؛ فلم أستطع النوم على الرغم من التعب الشديد الذي أشعر به داخل روحي، قبل جسدي.

جلسنا للفطور. منذ مدة لم أجد الوقت للجلوس معهم بعد أن أبعدتني هموم الحياة عنهم.

. أمي، طلبنا منك بعض الطلبات التي تخص المدرسة.

أردف وائل يقول:

. الأستاذ وبخني أمس، وتوعد بضربي إن لم أحضرها. أصبحت أخجل أمام زملائي لأنني الوحيد الذي لم يحضر الكراسات التي طلبها منا.

المال الذي كان بحوزتي نفد تقريباً منذ أيام، ولن يعود معي ما أشتري به الطعام اللازم للبيت.

. نسيت أن أحضر لكم طلباتكم من المكتبة؛ لقد ألهاني العرس. أعتذر؛ يبدو أنني أصبحت أنسى كثيراً هذه الأيام...

وضحكت، مدعيةً أني أمازحهم.

. ولكنني أعدكم؛ سأمر عصراً إلى مكتبة (أبو علي) التي تقع عند ناصية الشارع، وأحضر كل احتياجاتكم المدرسية.

قطعت لهم الوعد، وأنا لا أدري ماذا علي أن أفعل لتوفير طلباتهم.

خرجوا للمدرسة دون أن أعطيهم مصروفهم اليومي. همس لي أحمد:

. أعطي عمراً مصروفه؛ فهو لا يفهم الوضع مثلنا؛ نحن نحتمل، ولكنه ما زال صغيراً.

لقد كبر ابني؛ أصبح رجلاً يشعر بإخوته.

obeikandl.com

أدمعت عينيَّ كلماتُه، فهززت رأسي، وقبّلت جبينه. وفعلتما نصحني به.

بعد خروجهم جلست مع فنجان قهوتي اليتيم، كما أفعل كل يوم.

أرسلت لعماد عشرات الرسائل، فلم يرد لي جواب منه. طلبته عبر الهاتف، وكل مرة يعطيني الرقم أنه مغلق.

أيعقل أن مكروهاً وقع له؟

لم يراودني هذا الهاجس من قبل.

لا يمكن أن يتعمد تجاهلنا هكذا؛ هو يعرف أننا نحتاج المال، ولا يوجد مورد آخر غير ما يرسله لنا شهرياً.

مرت ثلاثة شهور منذ أن أرسل لنا المال. كلما سألته تهرب وقال:

. استديني من أخيك؛ فالتحويلات متوقفة. سيصلكم المال في أقرب فرصة. أنا أحاول بكل جهدي إيصاله لكم.

أنفقت كل مدخراتي، ولم يبق بحوزتي شيء.

وفكرة الاقتراض من أخي توفيق غير واردة أبداً، فهو لا يسأل عني، ولا يزورني حتى.

أيعقل أن أهين كرامتي لأستدين منه المال؟

ساعدني، يا ألله!

يجب أن أتصرف؛ لن أترك أولادي يتعرضون للإهانة بسبب تقصيري في تلبية احتياجاتهم.

لو أكملت تعليمي لما جلست ربما الآن بانتظار رحمة عماد وأمواله لتهبط علينا.

ولا يوجد أحد أذهب إليه لأستدين منه المال. بعت منذ زمن ما أملكه من مصاغ حتى أساعد عماد في توفير مصاريف السفر.

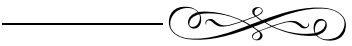

سأبيع الكمبيوتر اليوم وأشتري بدلاً منه أقلاماً ودفاترَ على قدر حاجة الأولاد. وبالباقي سأجلب بعض الطعام للبيت.

استقر رأيي على هذا الحل المؤقت لعل عماداً يرسل لنا المال أو يرد على اتصالاتي ليخبرني ماذا أفعل.

جرس الباب أيقظني من تفكيري العقيم.

.من الطارق؟

لم أعد أفتح الباب إلا بعد أن أتيقن من هوية الذي خلف الباب.

.هذه أنا؛ افتحي الباب.

هذا صوت حماتي. لست في حالة مناسبة لاستقبالها الآن، وغير قادرة على المجاملة.

.لحظة، أنا قادمة لفتح الباب.

دخلت حماتي وراحت، كما عادتها، تتفقد كل شيء حولها. حتى الجدران لا تسلم منها فتجدها تلمسها كأنها تطمئن أنها كما تركتها آخر مرة.

والحمامات لا تتركها حتى تتفقدها.

كدورية شرطة تمر للتفتيش عليها تمسك المتهم متلبساً بجرم ما.

تركتها تفعل ما يحلو لها، ودخلت للمطبخ لتحضير الشاي والفطور كما تعودت كلما أتت لزيارتنا.

لم يكن في الثلاجة إلا ثلاث بيضات وقطعة صغيرة من الجبن الأصفر زادت من فطور الأولاد.

وضعتها في صحن صغير ثم قليت البيض وقدمته لها مع الشاي. وضعت الصينية على الطاولة وجلست أنتظرها حتى تنتهي من جولتها التفتيشية.

أنجزت مهمتها، وعادت لتجلس قبالتي على الطاولة.

نظرت للصينية شذراً.

. يبدو أنه لا وقت لديك لصنع طعام إفطار يليق بزيارة حماتك التي لا تأتي إلا نادراً لبيتك.

قالتها، وهي تلوي فمها يمنةً ويسرةً.

. سلامة قيمتك، يا حماتي، ولكنني لم أخرج للتسوق أمس، ولم يبق في الثلاجة إلا البيض والجبنة.

. وما الذي يشغلك؟ يبدو أن هناك أموراً أهم من التسوق وتوفير الطعام اللازم لصغارك.

لم أرد عليها، واكتفيت بأن قلت لها:

. تناولي طعامك قبل أن يبرد.

. ماذا؟ كأنك تريدين مني أن أغلق فمي؟

. لم أقل ذلك، ولا يمكن أن أقوله. كل ما قلت: تناولي طعامك قبل أن يبرد.

كنت أتكلم رغماً عني؛ فقد شعرت بدوار في رأسي.

. وإن لم أصمت، فماذا ستفعلين؟ يبدو أنك تعيشين على هواك منذ سافر ابني للعمل في الخارج ليوفر لك ولأولادك حياةً رغيدةً. لم يعد أحد يستطيع توجيه الحديث إليك أو إسداء النصيحة.

وقفت فجأةً، وضربت الطاولة بيدي بقوة، وقلت لها من بين أسناني، وأنا أقاوم السقوط:

. لا أسمح لك أو لغيرك باتهامي بشيء. أنا لا أعيش على هواي. انتبهي لكلامك جيداً.

. هل تهددينني؟ هل ستضربينني إن لم أصمت وأفضح أفعالك القذرة؟

. اخرجي من بيتي حالاً؛ لا أريدك هنا. اخرجي.

أول مرة يعلو صوتي في وجهها على الرغم من كل ما حدث بيننا في السابق من مشكلات.

obeikandl.com

ولكن هذه المرة مختلفة؛ إنها تطعن في شرفي.

لم أتمالك نفسي، وأخذت بالصراخ بهستيريا:

.اخرجي من هنا فوراً.

بدت الصدمة واضحةً على وجهها بعد ردة فعلي غير المتوقعة؛ اعتادت صمتي وعدم ردي على الإساءة.

خرجت، وهي تجرجر ثوبها، وتتوعد أنها لن تسكت عن هذه الاهانة وعلى طردها من بيت ابنها.

كل ما أذكره بعد خروجها أنني رأيت خيال شخص يحاول إيقاظي بعد أن وقعت أرضاً، ثم أصبح كل ما حولي ظلاماً.

فتحت عينيَّ فرأيت وداد، تجلس بجواري على الفراش. ابتسمت لي فوراً.

.كيف حالك الآن؟ هل تشعرين أنك بخير؟

.أحسن، الحمد لله، شكراً لك.

.ماذا حدث؟

خرجت من بيتي على صوت صراخك؛ فلم أعتد يوماً أن أسمع صوتك يعلو. فتحت الباب مسرعةً لأرى ما الخبر، فوجدت امرأةً تخرج من منزلك، وهي تهدد وتهدر، وأنت خلفها تصرخين وتقولين: اخرجي، اخرجي... ثم سقطت على الأرض فجأةً. حاولت ايقاظك، ولكنني لم أتمكن من ذلك، فقد كنت غائبةً عن الوعي تماماً؛ فنقلتك إلى هنا، وانتظرت حتى استيقظت.

.هل بقيتُ غائبةً عن الوعي وقتاً طويلاً؟

.حوالي ساعة.

.شكراً لمساعدتك؛ من المؤكد أنني أتعبتك معي.

.نحن جارتان؛ لا تقولي هذا.

لأول مرة أشعر أن وداد تشبهني؛ أنا وهي وجهان لعملة واحدة.

obeikandl.com

. أثناء نومك صنعت لك طبقاً من الشوربة اللذيذة. يجب أن تتناوليه؛ سيفيدك كثيراً ويشعرك بتحسن. يبدو وجهك شاحباً جداً كأنك لم تأكلي منذ دهر من الزمن.

لم أجادلها. أخذت الطبق من يدها، وبدأت أتناوله. اكتشفت أنني جائعة، وطعم الشوربة كان لذيذاً.

. سأذهب لتحضير الطعام للأولاد. سأكون سعيدةً بذلك، فأرجو أن تسمحي لي بذلك.

نظرت إليها مستفسرةً، ففهمت ما أريد قوله فوراً.

. لا تخافي. سيغيب طوال النهار، ولن يعود قبل منتصف الليل فلديه مهمة جديدة، كما يقول.

لم أعرف يوماً ما هو عمله على الرغم من أننا جيران منذ مدة طويلة: ما يقارب سبع سنوات.

يعني قبل سفر عماد للعمل بثلاث سنوات.

لم أحاول الاختلاط معهم، ولم تحاول هي أيضاً ذلك.

اليوم كان الأول لمعرفة وداد الجارة.

فوجئ الأولاد بوجودها في البيت حين عودتهم؛ فقد حضّرت لهم وليمةً من الأرز واللحم لم أصنع لهم مثلها منذ مدة ليست بالقليلة.

رأيت السعادة في عينيها، وهي تنظر للأولاد، وهم يلتهمون طعامها بتلذذ.

جلستْ بينهم، تشاركهم الطعام والحديث بمرح فجائي.

بعد أن تناولوا الطعام نظفت البيت والمطبخ، ولم تسمح لي بأن أنهض من مكاني.

. اليوم، هم وكل ما يخصهم لي، رجاءً.

هذا ما قالته لي، وهي تصر علي للبقاء جالسةً.

obeikandl.com

دخلت لأستريح في غرفتي؛ فما زلت أشعر بالدوار، وبقيت هي تتحدث مع الأولاد بعض الوقت،

ثم دخلوا لكتابة واجباتهم.

جاءت بكوبين من العصير، وجلست قربي.

.اشربي هذا؛ سينفعك، بكل تأكيد.

تناولت منها كوب العصير، وابتسمت لها بامتنان لاعتنائها بي وبالأولاد.

.ماجدة، أريد أن أطلب منك شيئاً، وأتمنى ألا ترديني خائبةً.

نظرت إليها مترقبةً ما سيأتي من كلام. مدت يدها إلى جيبها، وأخرجت مبلغاً من المال ومدّته نحوي.

.ما هذا؟

. اقبليه مني هديةً للأولاد، واعلمي أنك بقبوله تحققين لي سعادةً كبيرةً لا يعلمها إلا الله. وأية سعادة أراها في وجوههم الصغيرة غيثٌ لي بعد سنين عجاف.

عندما وجدتني على وشك الرفض واصلت حديثها لتقنعني.

.لا تحرميني هذه السعادة، ثم إني لا أحتاج المال، وزوجي نبيل لا يعرف عنه شيئاً؛ هو مالي الخاص، أدخره دون أن يعلم ذلك. فلو علم به لأخذه ليصرفه على ملذاته وشرابه. خذيه، أرجوك.

نظرت ليدها الممدودة نحوي بالمال وقلت لها:

.يبدو أن الأولاد تحدثوا أكثر من اللازم.

.مطلقاً. كنت سعيدةً جداً بحديثهم معي.

مدت يدها بالمال مرةً أخرى.

.حسناً! سأقبله بشرط أن يكون ديناً أسدده حالما يرسل عماد المال.

.اتفقنا، وأشكرك لأنك قبلت أن تأخذيه.

ثم نهضت وقبلتني بسعادة على وجنتي، وأخذت الأكواب وذهبت لغسلها في المطبخ.

حين عادت سألتني:

.هل تريدين شيئاً قبل أن أنصرف؟

.شكراً على كل ما فعلته لنا اليوم؛ قد لا تكفيك كلمة شكراً.

. لا، لا تشكريني؛ أنتم من فعلتم، لا أنا. أنا من يجب أن يشكركم لهذه السعادة التي أشعر بها.

قالت ذلك، وخرجت.

بعد برهة سمعت صوت إغلاق الباب.

بعد انصرافها شعرت بالتعب، ولم أحاول التفكير بأي شيء مما حدث. فقط أغمضت جفوني ورحت في نوم عميق.

قبل أن يخرج الأولاد للمدرسة أعطيتهم المال لشراء ما يلزمهم من أغراض مدرسية، وأعطيت لكل منهم مصروفه الشخصي ليشتري به ما يشاء.

بعد خروجهم بساعة تقريباً سمعت طرقاً خفيفاً على الباب.

.من هناك؟

.وداد.

فتحتُ الباب.

كانت تحمل في يدها صينيةً وُضع عليها الجبن والزيتون والزيت وبعض الزعتر والخبز الطازج وإبريق من الشاي.

. جهّزت الافطار، وجئت لأشاركه معك إن لم يكن لديك مانع. ليتني لحقت الأولاد قبل خروجهم من المدرسة، ولكن نبيلاً تأخر في النوم ولم يخرج باكراً؛ فانتظرت حتى انصرف لعمله وجهزت الافطار وجئتك مسرعةً.

قالتها، وهي تضحك بمرح.

obeikandl.com

.تخجلينني بكرمك واهتمامك.

.لا تقولي هذا أبداً، أسمعت؟ هذه متعة لي، وكفى.

ابتسمت لها، ولم أزد ثم جلسنا لتناول الإفطار.

.ما هو عمل زوجك؟

سألتها فجأةً، فتوقفت عن مضغ الطعام ونظرت إلي.

أردفتُ:

.لا تقولي شيئاً إن أزعجك سؤالي. عدّي أني لم أطرحه. كان مجرد فتح مجال للحديث بيننا.

في الحقيقة هو فضول مني.

ضحكتُ فضحكت بدورها.

.لست متضايقةً إطلاقاً، ولكن الأمر كله يخجلني.

هو يهرّب المخدرات من الأنفاق على الحدود المصرية الفلسطينية.

قالتها بهدوء وتقزز.

إذن زوجها مهرّب!

أردت طرح المزيد من الأسئلة لولا جرس الباب الذي أسكتني. شعرت بها تتوتر.

.سأرى من هناك.

فتحت الباب فوجدت أم سليمان. يبدو أنها جاءت لتطمئن لماذا لم آتِ لحفلة الصباحية الخاصة بعرس أمس.

.ما بك، عزيزتي؟ انتظرت قدومك. كانت حفلةً مسليةً.

وغمزت بعينها، وضحكت.

فُوجئت بوجود وداد أمامها.

.السلام عليكم.

.كيف حالك، حبيبتي؟ سألتها أم سليمان.

.أهلا بك، بخير. الحمد لله.

مدت أم سليمان يدها لوداد وصافحتها بطريقة ودودة كعادتها.

.أنت جارة ماجدة في الشقة المقابلة، أليس كذلك؟

.نعم، صحيح.

عادت وداد لطريقتها المتحفظة في الحديث، فقالت لها أم سليمان:

.اجلسي اذن لأخبركما ما حدث بالأمس في الحفل.

قالت ذلك بمرحها المعتاد، لكن وداد قالت لها:

.أعتذر، ربما مرةً أخرى. كنت أهم بالرحيل حين جئت أنت. لدي بعض العمل المنزلي لم أنجزه بعد.

.على راحتك، عزيزتي. تفضلي.

.عن إذنك، ماجدة. سأعود لتفقد أحوالك بعد أن أتمَّ ما علي.

قالت ذلك كأنها تقول لي "سأنتظر رحيل ضيفتك، وأعود".

.تفضلي، غاليتي. وشكراً على كل ما فعلته.

نظرت لي بعتاب، ومضت.

دخلت أم سليمان إلى المطبخ.

.سأحضّر القهوة؛ فالحديث لا يحلو دون فنجانين من القهوة.

ضحكت لها وقلت:

.فليكن.

.جاء أهل العروس محملين بالهدايا وصواني الحلوى والعصائر، كما العادة.

دخلت النساء بالزغاريد والمهاهاة، تتقدمهن أم محمد وبناتها.

بدأت أم سليمان حديثها، وهي تضع القهوة أمامنا.

.فوجدنا العريس يجلس عابساً، وأمه بجانبه كأنها تواسيه بمصابه.

obeikandl.com

رأيت هذا المشهد وبدأت أكتم ضحكاتي.

.يبدو أنه لم يفلح في مهمته.

قالت ذلك، وضحكت عالياً.

أم سليمان تستمتع بسرد الفضائح دائماً، وأظنها ستخرج من عندي لتكمل جولتها على باقي نساء الحارة لتحكي لهن خيبة العريس في أول ليلة من زواجه.

. خرج العريس ليجلس مع الرجال. استقبلتنا والدته بترحاب مصطنع. جلست بين النساء، تنظر بين الفينة والأخرى لكنتها الجديدة بغضب كأنها تحملها مسؤولية إخفاق ابنها.

جرت أم محمد العروس لغرفتها لتفهمها ما عليها فعله.

دخل بعد ذلك والد العروس وإخوتها ورجال العائلة المقربون لتهنئتها وإعطائها المال، كنوع من الهدايا التي تقدم من رجال العائلة للعروس. فور دخولهم بدأت النساء بالزغاريد استقبالا لهم

قبلت العروس يد والدها وتمنى لها حياة سعيدة ثم خرج الرجال لتناول القهوة والحلوى.

سكتت النساء عن الزغاريد وجلسن لتناول الحلوى قبل أن نغادر جميعا متمنين للعروسين حياةً سعيدةً، وأن يرزقهما الله الذكور.

أتمت سرد حكاية الصباحية برشفة من فنجانها، منتظرةً مني ردة فعل غير الصمت.

هل تتوقع أن أضحك لما حدث؟ قلبي الآن لا يتسع إلا للغضب، للبكاء، لأشياء كثيرة مريرة، ليس من بينها الضحك، بكل تأكيد.

ليس ذنبها أنه أخفق، كما لم يكن ذنبي يوماً.

لم نخلق لنكون عاهرات! ما زلت الطفلة البريئ تسكن في قلوبنا.

لماذا علينا أن نتحمل أكثر مما يجب؟

لماذا علينا أن نكون دمى بخيوط تمتلكها أيديهم، لا حول لنا ولا قوة؟

"حين كنت صغيرةً، كنت أتعلق بأجنحة الطائرات الورقية، أحلق مع أحلامي بعيداً، أزور مدن الخيال؛ كبرت وسقطت من علٍ. علمت أنه لا يوجد مدى للتحليق فقط. هي مساحة فارغة في عقلي الصغير، وها أنا أجلس هنا، بلا أسماء، بلا أمنيات، بلا صدى... صوت امرأة تهزكتف الوقت وتخيط الهذيان، وحسب... "

أتمت أم سليمان قهوتها، ودعتني إلى زيارتها حالما تتحسن صحتي، ووعدتني أن تأتي للاطمئنان علي حين يسمح لها الوقت، ثم ودعتني وانصرفت لتكمل سرد الحكاية لباقي الجارات.

بعد أن عاد الأولاد من المدرسة طلبت منهم الاغتسال حتى أجهّز لهم بعض الطعام. لم أكن قد ذهبت للتسوق بسبب المرض والأحداث التي مرت بي، فأرسلت أحمد لشراء بعض الحاجيات من البقال الذي يقع عند ناصية الشارع.

بدأت أسكب المعلبات لتقديمها لهم.

سمعت صوت وداد في الصالة تتحدث مع أحمد:

.أعتذرعن التأخيرفي تجهيزطعام الغذاء لكم.

خرجت من المطبخ لأجدها تضع صينيةً كبيرةً يوجد عليها الكثيرمن أصناف الطعام.

.ما كل هذا؟

.هذه سعادة تقدمونها لي.

فابتسمت لها.

تجمع الأولاد حول طاولة الطعام، وجلسنا جميعا نأكل، ووداد تتكلم وتضحك مع الأولاد كأنها طفلة صغيرة عاد بها العمرلزمن قد سُرق منها دون رحمة.

ذهب الأولاد بعد تناول الطعام للّعب بالكرة في الشارع. نظفت وداد مكان الأكل كما فعلت بالأمس ولم تسمح لي بمساعدتها مطلقاً.

ذهبت لإحضار إبريق من العصير الطازج كانت قد صنعته في بيتها. جلسنا على الطاولة المقابلة للمطبخ كالعادة لشرب العصير.

.تزوجت به عن حب.

رفعت رأسي متعجبةً مما قالت.

. أعلم أنك ربما لن تصدقي ذلك، ولكنها الحقيقة. كانت قصة حب كبيرةً حاربت الجميع من أجلها، وخسرت الجميع من أجل الفوز في معركتي. رفضته عائلتي، ولم يقبل أحد منهم مجرد النقاش في الموضوع. أبي كان يراه صعلوكاً متسلقاً لا يليق بنا، يتطلع فقط لأموالنا. لم أكن لأقتنع بذلك، فأصررت أنه يحبني لشخصي، وأني سأتزوج به، مهما كلف الأمر. وبسبب تعنت أبي والمعارضة الشديدة من الجميع لم يكن أمامي إلا اللجوء لخالي لطلب المساعدة منه، فقد كان يكره أبي كرهاً شديداً، ويريد الانتقام منه بأية وسيلة لأنه منعه من زيارة والدتي؛ فهو لا يأتي إليها إلا لطلب المال؛ فوجدني فرصته الذهبية لتنفيذ انتقامه من كرامة أبي. لم أكن لأعي ذلك في وقتها. كنت أريد فقط تحقيق ما أريد، وهو الزواج بنبيل، وليحترق العالم بعد ذلك.

ذهبنا للمحكمة، وزوجني على أنه ولي أمري.

حين علم أبي بما فعلته لم يتحمل الصدمة فأصيب بسكتة دماغية أودت بحياته، وأخي حمل حقائبه وسافر خارج البلد بعد انتهاء أيام العزاء مباشرةً؛ إذ لم يحتمل العار الذي جلبته لهم، أو نظرات الشفقة من البعض والشماتة من آخرين. لم أعرف عواقب ما فعلته إلا في وقت متأخر جداً. طوال عمري كنت الطفلة المدللة العنيدة التي تفعل ما تريد كيفما تريد بلا حساب أو عقاب.

كل الأمور أخذتها بتحدٍّ كما علمني أبي، وهذا كان التحدي الأخير الذي أودى بحياة معلمي.

لم تسامحني أمي قط على ما فعلته بأبي وأخي، ففضّلت أن تبقى في وحدتها على أن تقبلني مرةً أخرى ابنة لها. لقد جردتها من كل ما تملك في الحياة: زوجها وأولادها في لعبة غباء مارستها.

بعد أسبوع من وفاة أبي بدأ نبيل يطالبني بالذهاب لأخذ ميراثي؛ فهذا ما كان يسعى إليه منذ البداية، وموت أبي وفر عليه الكثير من الوقت.

أخبرته أن أبي حرمني كل أمواله، وسجلها باسم أخي. كذبت عليه لأفقده الأمل، وكي يدرك أنه لن ينال من أموال أبي شيئاً، وأن أحلامه بالثروة ذهبت أدراج الرياح.

ثارت ثائرته وبدأ يظهر على حقيقته، فأصبح يتلذذ بضربي وإهانتي كل حين. ولم أكن لأعترض؛ فأنا أستحق العقاب، بل أريده لعلي أسقط بعض الذنوب عن كاهلي، فسكاكينها المثلمة تحز عنقي بلا رحمة، ولا تدعني أموت مهما حاولت.

خسرت كل شيء من أجل لا شيء.

عرفت أنه يتعاطى المخدرات ويتاجر بها ويعاقر الخمر بكل وقاحة.

مثّل دور الحبيب بإتقان شديد ليصل لأموال أبي. كنت مثل اللبؤة التي وقعت في الشرك وأكلت كل الأيادي التي امتدت لمساعدتها قبل أن يطبق عليها تماماً.

فرحت بالمغامرة الجديدة، ولم أنتبه على رائحة المشروب في أنفاسه، ولا احمرار عينيه الواضح من أثر الإدمان. كنت عمياء طوال الوقت فخانتني خطواتي. أعلم أنك تتساءلين لماذا ما زلت زوجته رغم كل ما فعله بي من ضرب وإهانة.

كان يجب أن أعاقب لما فعلت؛ فأنا أستحق كل ما يحدث لي، وأكثر. العقاب الآخر الذي نفذته بحق نفسي طوعاً أني حرمت نفسي من الإنجاب عمداً؛ لا أريد أن أنجب أطفالاً ينتمون إليه.

أذنبت، ويجب أن أعاقب.

قالت ذلك، وصمتت.

تركتها تحكي وجعها دون حتى أن أربت على كتفها.

"لسنا ملائكة؛ ربما نكون قد وُلدنا من رحم معصية، أو أن الأرض أخطأت ذات دوران فجئنا محملات بذنوب الفصول، ولكننا هنا، والأرصفة تشكو خطانا المثقلة...

نحن الفاسقات الخائنات المحملات بوجع الطريق... نحن من شققنا الضلع...

أكلت التفاحة؛ فكان لنا الذنب. نبتت في صدورنا الأشجار، وما زلنا نبحث عن الظل..."

obeikandl.com

الفصل الخامس

في المساء، جلست لأتفقد جهاز الكمبيوتر؛ لربما وجدت خبراً من عماد.
مع الأسف، لم يكن قد أرسل أية كلمة.
وجدت فقط رسالةً من إيمان، تعتب علي لأنني لم أرد أو أعقّب على رسالتها الأخيرة.
كتبت لها رسالةً أعتذر لها فيها عن عدم تمكني من مكالمتها في الأيام السابقة بسبب ظروف مرت بي.
لم أكن من النوع الذي يحب البوح بما يدور في حياته لأحد.
ما يمر بأيامي يخصني وحدي. هذه قناعتي. الشفقة أو إدعاء التعاطف يغضبني، بل يشعرني بالتقزز من نفسي.
كدت أن أقفل الجهاز لولا أني رأيت تلك النقاط الصغيرة تتحرك تعلن عن وجود الطرف الآخر، وأنه في طريقه لكتابة رسالة ما.
يبدو أنها كانت ترقب ردي لها.
لا تهتمي، ماجدة. كم اشتقت إليك، صديقتي. كل ما في الأمر أني أحب الحديث معك؛ فعلى الرغم من المسافات التي تفصلنا فإني أرتاح جداً في حديثي معك دون غيرك. هيا طمئنيني: كيف حالك والأولاد، هل الجميع بخير؟
.نعم، بخير حال، الحمد لله.
.شكراً لك، صديقتي على اهتمامك في السؤال عني وتفقد أحوالي على الرغم من تقصيري في التواصل معك.
.لا تقولي هذا؛ أنا أقدّر أن لكل منا ظروفه في الحياة الواقعية التي قد تأخذه بعيداً عن هنا. لدي فقط حديث أود أن أحكيه لك، كونك صديقةً أثق بها وبرأيها.

أتعلمين؟ بقيت أنتظر دخولك إلى هنا وأترقبه. وحين جاءني إشعار برسالتك فرحت جداً وبدأت أكتب إليك فوراً.

.ها أنا هنا، غاليتي. هاتي ما عندك؛ كلي شوق لمعرفة أخبارك.

. تعلمين مدى الوحدة التي أعيشها في بيتي؛ فزوجي يتركني ساعاتٍ طويلةً جداً، ويبقى في الخارج مع أصدقائه أو في عمله. وإن عاد للبيت لا أجد أي اهتمام. فقط اللامبالاة بوجودي. هذا كل ما أحصل عليه، فأغتاظ أكثر.

كانت تتحدث كمقدمة للاعتراف بخطأ ارتكبته، وتسوق التبريرات قبل فرد أوراقها.

. محاولاتي المستميتة للإنجاب كلها باءت بالفشل. لو أنجبت طفلاً فلربما كنت سأجد فيه السلوى والتسلية. كان وجوده سيشغل وقتي، ولن يهمني العالم بأكمله وقتها.

هي مخطئة! لدي أربعة أطفال، ولم أنس يوماً أني امرأة، ولم يمت الشوق في قلبي لنظرة اهتمام أو كلمة حب.

. هو يحملني ذنب أننا لم ننجب حتى الآن، ويدعي وأمُّه أن العيب مني، مع أنه يرفض الذهاب للطبيب لإجراء الفحوصات اللازمة لمعرفة سبب عدم الإنجاب حتى الآن. سأقول لك سراً: أنا لا أجد معه أية متعة في فراش الزوجية؛ فهو بارد، لا يعرف أن يرضي رغباتي بصفتي امرأةً.

ضحكت في سري.

ومن منا كانت امرأة في فراش الزوجية؟ نحن أدوات، ليس إلا.

ربما هناك نساء، ولكنني قطعاً لم أتعرف على إحداهن يوماً.

لم أكتب لها ذلك... اكتفيت بقراءة ما تكتبه لي دون أن أقاطعها. تركتها تكمل للنهاية دون تدخل مني أو تعقيب.

. منذ أسبوعين تقريباً، تعرفت على أحدهم في هذا العالم الافتراضي. هو انسان رائع ومعجب بي حد الهوس.

إذن، هذا هو الأمر؛ ليس الأول، ولن يكون الأخير.

. هو يهتم بي ويبحث عن كل الكلمات التي تسعدني ليسمعني إياها، فهو يراني أجمل النساء.

. هل طلبت الطلاق من زوجك، إيمان؟

فاجأتها بسؤالي.

. يعني أنتما غير منسجمَين، لم ترزقا أطفالاً؛ لا شيء يربط بينكما. ما الذي يجبرك على الاستمرار معه؟ أليس الانفصال أفضل من الخيانة هنا؟

كنت أكتب لها، وأنا أعلم أن كلماتي لن تروقها؛ فهي تحكي لي لسبب بسيط، وهو أن أؤيدها في كلامها، أو أعطيها المزيد من المبررات.

ربما خسرت صداقتها بعد هذا الحديث، فلا أعود الصديقة الفضلى عندها للبوح.

لم تجبني فوراً، حتى أني ظننت أنها لن تجيب.

. وماذا سأقول لأهلي وللناس؟

. وهل هم أهم من سعادتك واحتياجاتك كامرأة؟

. ليس الأمر كذلك، لكن الجميع يعد المرأة المطلقة وباءً، وأنت تعلمين ذلك، صديقتي. المطلقة أصبحت الآن حبيسة جدار بيت أهلها. حتى صديقاتها يحجمن العلاقة التي تربطهن بها لأن الأهل يظنون أنها ستفسد أخلاق بناتهم. والأزواج يظنون أنها ستحرض زوجاتهم على الطلاق وإثارة المشكلات. هل تريدين أن ينتهي بي الأمر على هذا النحو؟ الطلاق مخيف، مخيف جداً، يا صديقتي؛ وأنا لا أريد أن أكون وحيدةً.

إذن فنحن في مجتمع يفضل الخيانة المستورة على الطلاق البائن!

obeikandl.com

إيمان من النساء الجميلات جداً، كما شاهدتها في الصور التي أرسلتها لي أكثر من مرة؛ فهي تعلم ذلك وتتباهى بجمالها دوماً، وتعلم تأثيرها على كل من يراها من الرجال.

وأكثر ما يقتلها أن زوجها لا يهتم بهذا الجمال الأخاذ، ولا يبجّله كما يستحق.

ربما هذه عادة عند بعض الرجال؛ لا يعطي المرأة أهميةً حتى لا تشعر بتفوقها في أي شيء عليه. يجد أن التغزل بالمرأة وإبداء الاهتمام بها سينقص من رجولته؛ وهذا ما تربى عليه منذ الصغر على يد امرأة أخرى هي أمه.

في عالم الفيس بوك الافتراضي تجد المرأة أن لها شأناً آخر؛ الرجال يقدسونها ويتعاملون معها بكل حرص كأنهم من كوكب آخر غير الذي نحيا فيه،رجال الكوكب الأزرق

لطالما علمت بمغامراتها الزرقاء على الرغم من أنها لم تحك لي عنها شيئاً في السابق، ربما خوفاً من توبيخي لها، أو لأنها لم تشعر أن لي حكايات تشبه حكاياتها...

لكنني أنثى مثلها... تعتمل بداخلي الرغبات نفسها...

نلتقي في نقطة، ونختلف في أخرى...

لم أسمح للمطر يوماً بدخول بيتي؛ أغلقت كل النوافذ والأبواب، وجلست أراقب صوت نقراته من خلف الزجاج.

قد نكون عاهرات، يا صديقتي، يمثلن دورهن بإتقان، فننسى معه أننا الضحية والجلاد...

ظلت تكتب لي عن تبريراتها وصفات الحبيب الجديد ومدى تعلقه بها، وأنا أقرأ فقط دون تدخل مني في الحديث؛ فلقد استهجنت سؤالي لها عن الطلاق ولن أزيد شيئاً عليه.

مهمتي هنا الاستماع لها فقط دون معارضة أو إسداء نصيحة؛ فهي لن تقبل أبداً برأي يعارض متعتها الحالية في استقبال المدح والتغني بجمالها.

هي تريد أن تحكي فقط، ولا تنتظر رداً، على كل الأحوال.

أغلقت الجهاز بعد أن ودعتها، وبقينا على وعد بحديث قريب.

تكورت في فراشي، وأخرجت كنزي الصغير من داخل الوسادة وقرأته قبل أن أغفو.

طوال هذه السنوات لم يفارق وسادتي؛ فقد جئت به من وسادتي في بيت أبي ووضعته في وسادتي الزوجية.

كانت الرسالتان هدهدتي لأغفو كل ليلة.

في الصباح شعرت بتحسن كبير فقررت أن أذهب للتسوق.

ارتديت ملابسي وتجهزت للخروج بعد أن شربت فنجان قهوتي المعتاد.

تجولت في السوق واشتريت مستلزمات البيت الضرورية. حاولت ألا أسرف في المشتريات وأشتري فقط ما يسد حاجياتنا الأساسية.

فلا أدري إلى متى ستستمر الحال، وعماد منقطع عن مراسلتنا. وإن أرسل لنا الله عوناً عن طريق وداد هذه المرة فلا أدري ما الذي سيحدث إن نفدت النقود مرةً أخرى.

عدت للبيت، وأنا أحمل أكياس الخضار والأطعمة. وقفت استعداداً لفتح الباب حين خرجت وداد من بيتها.

. أين كنت؟ جئتك لنتشارك الإفطار، ولم أجدك.

. كما ترين ذهبت لشراء بعض الأغراض من السوق.

. حسناً، دعيني أساعدك في إدخالها. قلقت عليك؛ فما زلت مريضةً، وتحتاجين الراحة.

. بالعكس، أشعر بتحسن كبير، والفضل يعود لاعتنائك بي.

. قلت لك ألف مرة إن ما أفعله سعادة لي، وأنا من يجب أن يشكركم لمنحها لي.

تعاونا في إدخال الأكياس للمطبخ، ثم ذهبتُ للاغتسال وتغيير ملابسي، وبقيت وداد ترتب الأغراض في المطبخ.

تعاونا بعدها في إعداد الطعام وتجهيز المائدة.

مرت بقية اليوم، ونحن نتحدث في أمور من هنا وهناك. شكونا همنا مرةً وصمتنا كثير من المرات.

اعتادت أن تأتي في الصباح بعد ذهاب الأولاد للمدرسة وخروج زوجها للعمل، تمضي كل النهار معنا وتغادر قبل عودة زوجها من عمله المشبوه، آخر النهار.

لم أعد أسمع صراخها كما في السابق؛ يبدو أنه لم يعد يجد الوقت لضربها أو الاعتداء عليها.

قالت لي إنه يعود متعباً جداً، وينام مباشرةً.

أسرت لي مرةً:

.أنا أضع له أحياناً المنوم في الشراب حتى ينام ولا يقترب مني.

وداد تشبه من يمسك أداة حادة ويجرح جلده بها ليشعره الألم أنه حي.

في اليوم التالي بعد أن شربت قهوتي الصباحية تذكرت وعدي لعبير يوم العرس بأني سأزورها لأسمع بقية حكايتها.

هذه المرة ذهبت قبل خروجي لإخبار وداد بأني سأخرج بعض الوقت حتى لا تقلق إن جاءت للبيت ولم تجدني.

حين أخبرتها بنيتي شعرت بها كطفلة صغيرة تحتاج العناية، ولا تريد أن تُترك وحدها. أشفقت عليها جدا.

.لن أتأخر، أعدك بذلك.

.حسناً، في رعاية الله.

استقبلتني عبير فرِحةً بزيارتي، وجاءت أمها أيضاً لتجلس معنا بعض الوقت للترحيب بي، وعاتبتني على انقطاعي عن زيارتهم منذ زمن بعيد.

. أعلم بتقصيري، ولكن الحياة شغلتني بمشاكلها؛ وتعلمين مسؤوليات الأولاد التي لا تنتهي.

. أعلم يا بنيتي مدى صعوبة الحياة لامرأة وحيدة مثلك، وزوجك في بلاد الغربة، يحاول توفير لقمة العيش لكم. أعانك الله، يا بنتي.

. سلمت، يا خالة.

بعد مرور ساعة، استأذنت والدة عبير لأن لديها بعض المهام التي تريد إنجازها.

ضحكت عبير وقالت:

. سأذهب لجلب الشاي والكعك؛ فقد أخذنا الحديث ونسيت ضيافتك.

. لا عليك، اجلسي. لم آت إلا لأراك ولنتحدث.

. أعلم ذلك، ولكن لن يحلو الحديث إلا بالكعك؛ فهذه فرصتي لآكل بعضاً منه.

غمزتني بعينها وضحكت، ثم ذهبت.

بعد دقائق عادت، وهي تحمل صينيةً عليها إبريق من الشاي وفنجانين وطبق من الكعك.

جلست وصبت الشاي وقدمته لي ثم قرّبت طبق الكعك مني.

. في أول أيام زواجي منه عاملني معاملةً جيدةً.

بدأت حديثها، وهي تشرب فنجان الشاي بتأنٍ.

. بعد مرور أسبوعين على زواجنا بدأ يلمّح للديون التي تراكمت عليه بسبب زيجاته السابقة، وزواجي جاء بالضربة القاضية التي قضت على ما تبقى معه من مال.

obeikandl.com

هذا ما قاله لي بصراحة واضحة.

تكررت جملته أكثر من مرة، وعرفت أنه يلمّح لبيع مصاغي حتى يسدد بثمنه ديونه.

استجبت لطلبه، وأعطيته ما أملك من مصاغ رغم معارضة والدتي للأمر، لكني أردت أن ينتهي حديث الديون كي أعيش أيام زواجنا الأولى كما تحلم أية عروس؛ فقد ظننت أن ثقل الديون هو ما كان يمنعه من مغازلتي.

بعد بيعه مصاغي أصبح لا يعود للبيت إلا في ساعات متأخرة من الليل.

عاتبته أكثر من مرة، ولكنه كان يتذرع بالعمل.

.أي عمل هذا الذي يبقى لبعد منتصف الليل؟

.هذا ليس شأنك.

.أنا زوجتك، ولي كل الحق أن أعرف مكان وجودك، خاصةً أنك تهملني بهذه الصورة.

.لا حق لك عندي، أنت هنا لتشغلي حيز أمي لطالما طالبتني دوماً بإشغاله.

لم يكن يقترب مني كزوجة في فراشه إلا نادر جداً، وعندما يفعلها، فبدل أن يسمعني كلمات الغزل كان يسخر من سمنتي فينتهي الأمر ببكائي على وسادتي حتى أغفو.

ظهر لي، مع مرور الوقت، مدى بخله. وعندما كنت أطالبه بمصروف البيت كان يقول لي إنه يجب أن أمتنع عن تناول الطعام حتى يخف هذا الوزن القبيح.

على الرغم من هدوئها، وعلى الرغم من مرور وقت طويل على طلاقها إلا أن الكلمات تعثرت بدموعها، فلم أحاول تهدئتها، أو أن أطلب منها الكف عن البكاء.

أحياناً يكون البكاء طريقةً جيدةً لقتل بعض الذكريات المزعجة...

هذا ما جال بذهني، وأنا أرى دموعها بصمت بليد.

ربما أصبحتِ، يا ماجدة، قاسيةً وباردةً أكثر مما تدركين...

أتمت حديثها:

. حاولت مرةً الشكوى لحماتي، فنهرتني، وقالت إنه رجل، وإن خروجه ودخوله يعنياه وحده.

.لا تحاسبيه حتى لا يمل منك.

ومضت تتمتم:

.يكفي أنه قبل بفتاة بهذا الوزن القبيح.

.لم أجبره، أو أجبر أحداً على القبول بي. أفهمتم؟ لم أجبركم!

هذا ما صرخت به خلفها، ولكنها أدارت ظهرها، ولم تعط صراخي أية أهمية.

بعد تسعة شهور من زواجنا كنت قد فقدت الكثير من وزني رغم أني كنت حامل في شهري السادس. بالإضافة لما كنت أسمعه من توبيخ من زوجي والتلميحات القاسية من حماتي وبناتها عن وزني، فقد كان البخل الذي يتصفون به جميعاً قد أفقدني شهيتي عن الطعام تماماً حتى إني أُصبت بفقر الدم. كانت فترة حمل متعبةً جداً، ومن كان يراني وقتها كان لا يتعرف علي إلا بصعوبة.

ذات يوم كنا نجلس حول مائدة الطعام. وبعد أن أتم الجميع تناول الطعام حاولت النهوض متعبةً للتنظيف؛ إذ لم تكن حماتي أو بناتها يساعدنني في أعمال البيت قط؛ كنت جاريةً لهم.

طلبت من عبد المجيد أن يجلب لي بعض الفاكهة لأن الدكتورة نصحتني بالإكثار منها لما أعانيه من فقر الدم، فنظر إلي باستهجان وقال:

. من تظنين نفسك؟ كل يوم تخرجين بطلب جديد، وتتذرعين بالحمل، وبأن الطبيبة قالت كذا، وقالت كذا. من أين أجلب نقود لطلباتك التي لا تنتهي؟

كانت حماتي وبناتها يتلوين في جلستهن، مؤيدات ما يقول.

.الأكل سيعيدك بشعةً سمينةً، كما كنت حين تزوجت بك.

. أنت كاذب بخيل؛ أنا لا أطلب منك شيئاً البتة. كل ما طلبته بعض الفاكهة لأستطيع مواصلة حملي وخدمتكم.

. يا لك من وقحة! أية خدمة تتكلمين عنها؟ احمدي الله أني رضيت بفتاة قبيحة مثلك. والآن تتذمرين!

كانوا جميعهم ينظرون لي بنوع من التقزز.

. اصمت! لا أريد أن أسمع منك المزيد، ولا أريد أن أراك بعد اليوم. تباً لك! تباً لكم جميعاً!

هكذا انفجرت في وجههم. في البداية فاجأهم ردي عليه وصراخي.

لم أعرف ما حصل بعدها؛ فقد هجمن علي جميعاً، يشدن شعري ويركلنني من كل الجهات. صرخت في البداية، لكن صوتي ضاع بين أيديهن، وسقطت بلا حراك.

فتحت عينيَّ في اليوم الثاني، وأنا أشعر بالألم في كل جسمي. كانت والدتي تجلس قرب رأسي، وتقرأ لي القرآن. ما إن رأتني حتى قالت:

. صدق الله العظيم.

وضعت المصحف على الكرسي بجانبها، وأقبلت تقبّل جبيني.

. الحمد لله على سلامتك، يا بنتي. اللهم انتقم منهم لما فعلوه بها.

. ماذا حدث، يا أمي؟

تحركت يداي أتحسس بطني، ولكني لم أجده كما كان.

نظرت بخوف ناحية أمي.

. لقد أسقطت طفلك بسبب وحشيتهم، ونجوت بأعجوبة بعد النزيف الذي سببه لك ضربهم المبرح.

. مات طفلي؟

صرت أرددها، وأنا أتحسس بطني مرةً أخرى.

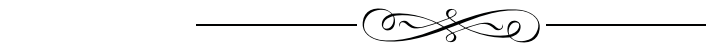

اعترتني نوبة نحيب وبكاء، فراحت أمي تبكي معي وتحاول تهدئتي. دفنت رأسي في صدرها، فعادت لتقرأ لي القرآن حتى غفوت مرةً أخرى.

بقيت بعد خروجي من المشفى بمدة طويلة أعاني الآلام الجسدية والنفسية التي لم ولن تنتهي أبداً.

بعد أيام اكتفيت برفع دعوى تنازلت فيها عن كل حقوقي مقابل الحصول على الطلاق.

لم يسمح لي أخي برفع دعوى عليهم لما فعلوه لي واتهامهم بقتل طفلي، فقد كان يجدني مذنبةً فيما حدث.

قال لي حين طالبت بأخذ حقي:

. أنتن النساء تافهات، لا تجدن غير افتعال المشكلات من لا شيء. أنت تستحقين ما حدث لك، فأنت لم تحترمي زوجك وأهنته أمام أهله.

كان عليها إذن أن ترضى وأن تصمت لتحتفظ بحلمها بالزواج والأمومة!

"إلقاء النرد على طاولة اللعب لا يجلب الربح دائماً، لكنه يجعلك شريكاً للزهر في رقصته. "

أتمت عبير حديثها بتنهد طويل، كأنها عبرت به الصراط الواصل بين الموت والحياة.

"الحياة خندق مملوء بالذكريات، علينا أن نحسن حفره حتى لا نجلس القرفصاء عمراً كاملاً. "

أتممنا شرب الشاي، ثم استأذنت منها لأكون في البيت قبل عودة الأولاد لتحضير طعام الغداء.

ارتدت ملابسها وخرجت معي لإيصالي؛ فقد أرادت أيضاً أن تمر بالبقال عند الناصية لشراء بعض الأغراض.

ما إن عبرنا باب البيت حتى ظهر أمامنا طفل صغير رائع الجمال، أشقر، ذو عينين زرقاوين.

. يا إلهي! إنه الطفل ذاته الذي رأيته يوم العرس. كان شادي يحمله فوق ركبتيه.

لم يكن خيالاً إذن! كان هناك بالفعل! أمسك الطفل بثياب عبير فانتهتْ عليه وحملته، وهي تضحك له.

. تعال هنا، أيها الوسيم.

التفتت لي وقالت:

. ما رأيك بهذا الجمال الأوروبي؟

عادت تنظر إليه بتباهٍ. عبير تعرفه جيداً إذن. داعبت شعره الذهبي اللامع.

. من يكون؟ تبدو ملامحه أجنبيةً بالفعل.

. إنه حفيد عمتي انتصار، والدته أوروبية. منذ مدة طويلة، سافر ابنها شادي للعمل خارج البلد مترجماً في إحدى المؤسسات بعقد عمل أمّنه له خاله الذي يعيش هناك.

. إذن هذا ابن شادي.

هل لي أن أحمله؟

قلتها، ومددت يدي.

ضحكت عبير، وقالت:

. أكيد، أعلم أنه جذاب.

وغمزتني بعينها. ضحكت لها وأخذته بين ذراعيَّ. استنشقت عطره؛ احتضنت شادياً فيه.

أتمت عبير كلامها، ونحن نسير معا في الشارع.

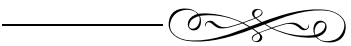

. وقتها أذكر أن عمتي استعجلت سفره؛ فقد كان في حالة يرثى لها. على ما أذكر، فإنه وقع في حب فتاة، وأراد الزواج بها، حتى إنه كان سيتنازل عن فرصة عمله في الخارج من أجلها. وحين أرسل عمتي لخطبتها اكتشفت أنها كانت كاذبةً، وأنها أوهمته بالحب في الوقت الذي كانت مرتبطةً فيه بشخص آخر. توقفت فجأةً، وأنزلت الصغير أرضاً، فقد شعرتُ بالدوار بعد سماع ما قالته. بدا لي أن كل ما بداخلي سقط على ذلك الرصيف الذي نقف عليه، ولم يبق إلا الفراغ.

قالت:

. يبدو أن سامياً أثقل عليك.

هززت رأسي لها، وأنا أحاول الابتسام، فضحكت وأمسكت يده لتقول له:

. أترى؟ لقد أصبحت رجلاً كبيراً، ولا تستطيع الخالة ماجدة حملك.

أتممت حديثها عن شادي دون أن تنتبه على الأمواج التي تضرب كل زاوية في جسدي، وترتد لتتقلب في الفراغ الذي أضحى داخلي.

تعرف بعد خمس سنوات من وجوده هناك على إحدى زميلاته في العمل وتزوج بها.

أنجب منها سامياً الجميل.

نظرتْ للطفل وقبّلته.

. منذ عام تقريباً، أخبر عمتي أنه يود العودة لأنه ما عاد يحتمل الغربة أكثر، بعيداً عنهم.

أظنه قرر ذلك بعد أن علم بمرض زوج عمتي، وأن قلبه أصبح ضعيفاً، فأراد أن يكون معهم، لكن زوجته رفضت المجيء، وأصرت أن تبقى في بلادها، فتنازلت عن حضانة ابنها مقابل الحصول على الطلاق باتفاق بينهما. يسكن الآن مؤقتاً مع ابنه في بيت عمتي إلى أن يجد الزوجة المناسبة لتكون أماً لابنه.

قالت ذلك، وابتسمت بخجل.

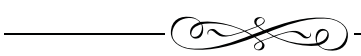

obeikandl.com

كنا قد وصلنا إلى البقال الذي تقصده عبير فودعتها هناك، وتابعت طريقي للبيت.

قطعت المسافة، وأنا أشعر أن قدميَّ معلقتان في حلقي الذي تورم من طول المسافة، والغصة فيه شائكة لا ترحم. كل هذه السنين كنت خائنةً في نظره. لم يفكر فيَّ، لم يشتق إلي. كان يكرهني، عاش سنين طويلةً، وهو يكرهني...

ما إن دخلت البيت حتى لحقت وداد بي؛ يبدو أنها كانت تنتظر عودتي.

نظرتْ لوجهي، لكنها لم تسألني شيئاً بل قدّمت لي كوباً من العصير كعادتها حين نكون معاً، واكتفت بالجلوس بصمت؛ فقد أحست أني أحتاج ذلك الصمت.

مر اليوم، ووداد برفقتنا، ولكنها قضت معظم وقتها برفقة الأولاد، وتركتني أنفرد بنفسي.

بعد أن غادرت، ودخل الأولاد لغرفتهم أغلقت باب غرفتي على نفسي، وجلست خلفه أبكي كما لم أبك من قبل.

obeikandl.com

الفصل السادس

في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل استيقظت حين شعرت بيد عمرو الصغيرة تهزني.

فتحت عينيَّ، ونظرت إليه دون أن أستفيق تماماً.

.أمي! أشعربألم شديد في بطني! تكاد أمعائي تتقطع من الألم!

كان يتكلم بصعوبة، ويحاول ألا يبكي، وهويعصربطنه بكلتا يديه.

اعتدلت على الفراش بسرعة، وقربته مني وأجلسته ثم لمست جبينه بظهر يدي فوجدت حرارته مرتفعةً جداً.

نهضت بسرعة.

.لا تخف، يا صغيري.

قلت له، وأنا أضعه في فراشي:

. سيزول الألم بعد لحظات. سأذهب لأصنع لك كوباً من الأعشاب الدافئة، ولكن علينا أولاً خفض حرارتك. يبدو أنها مرتفعة جداً. ولكن عليك أن تتحمل الألم، يا بطل.

هزرأسه، وهويتلوى. حملته ووضعت قدميه ويديه تحت الماء البارد ثم نقلته للفراش مرةً أخرى لأضع له الكمادات، وتركته قليلاً لأصنع له الأعشاب علها تخفف من آلام أمعائه.

جلست بجانبه لأساعده على شربها، فشرب القليل منه على مضض، وهو يغالب نفسه ليتحمل الألم. كنت أسقيه، وأنا معجبة بشجاعته وعدم بكائه.

فجأةً بدأ يتقيأ، فشعرت بالخوف، وأخذته بسرعة وبدلت ثيابه، وهو على وشك الاغماء من السخونة والألم الذي بدا أنه يزيد.

ذهبت لأتصل بالإسعاف من الهاتف فتذكرت أنه مقطوع لأننا لم ندفع الفاتورة. والهاتف المحمول أيضاً فقدته منذ مدة طويلة، ولم أستطع أن أشتري غيره.

ماذا أفعل الآن؟ كيف لي أن أتصرف؟ ابني مريض جداً.

أسرعت لأوقظ أحمد ابني، وأخبره أني سآخذ أخاه للمشفى لأنه مريض جداً حتى يكون لديه علم عن مكان وجودي في حال تأخرت في العودة من المشفى أو إن استيقظ هو أو أحد أخوته، ولم يجدوني في البيت.

جلس، يفرك عينيه.

.ولكن الوقت متأخر جداً، يا أمي. كيف ستذهبين وحدك في هذه العتمة؟

. لا يهم ذلك، يا بني، فأخوك مريض جداً، ويتلوى من الألم، ولا خيار أمامي، فهو لن يحتمل الألم حتى الصباح. يجب أن آخذه للمشفى الآن؛ حرارته مرتفعة جداً.

. إذن دعيني آتِ معك؛ لن أتركك تذهبين وحدك.

. يا رجلي الصغير، وهل سنترك أخويك وحدهما؟ لو استيقظ أحدهما ولم يجدنا في المنزل فسيموت خوفاً.

كان ألم عمرو يزداد.

. ما رأيك، أمي، أن ندق على باب الخالة وداد؟ ستساعدنا حتماً، وتتصل بالإسعاف.

. لا، لا داعي لذلك. لن تستيقظ الآن أبداً مهما حاولنا دق بابها.

تذكرت فوراً زوجها الملعون، وما يمكن أن يحدث لو فتح لنا الباب في هذا الوقت. ارتعش جسدي من مجرد التصور.

obeikandl.com

. اسمع، يا بني، اذهب الآن للنوم بجانب أخويك، أو اجلس أمام التلفاز إن شئت، وانتظر عودتنا. لا أظننا سنتأخر. سأذهب لبيت أم سليمان وأوقظها لتتصل بالإسعاف أو لترافقني إلى المشفى.

أخيراً، اقتنع بما قلته.

لبست عباءتي، وحملت عمرو الذي أصبح الآن يأن بضعف.

رغم ثقله أسرعت خطاي قدر استطاعتي؛ فوجهه أصبح شديد الاصفرار، ورأسه حين وضعه على كتفي سخونته جعلتني أعدو عدواً.

الشارع معتم جداً، ولا يوجد به غير الكلاب التي تبحث عن طعامها بين أكياس القمامة.

شعرت بخوف شديد جداً من خروج أحد كلاب البشر أكثر من خوفي من تلك الحيوانات التي لا تؤذي أحدا إلا إذا حاول إيذاءها.

صوت عمرو، وهو يئن، وثقله الشديد بين ذراعيَّ زادا خوفي، فأخذت دموعي تسقط بلا حياء على وجهي في محاولة منها للتخفيف من عبء هذا العالم الفاسق.

شعرت بالوحدة، بالقهر، بالغضب، بالوحشة الشديدة. تشبثت بجسد عمرو وشددته نحوي في محاولة لتهدئة نفسي والشعور بالأمان.

عبرت شارعين، وكدت أصل للمفترق الذي يقع عنده بيت أم سليمان حين سمعت صوت سيارة تأتي من خلفي، فحبست أنفاسي خوفاً.

. يا ألله! سترك!

تجاوزتني السيارة، واستمرت في طريقها، فشعرت بالراحة وتنفست الصعداء.

لم يبق إلا القليل وأصل لبيت أم سليمان. فجأةً توقفت السيارة وبدأت ترجع ناحيتنا.

يا إلهي! ماذا يحدث؟

obeikandl.com

صرت أعدو على الرغم من ثقل عمرو الذي ارتخى جسده بين ذراعيَّ، وهو يئن.

يا ألله!

كدت أصرخ من الفزع. توقفت السيارة بمحاذاتي.

سأصرخ ان اقترب مني أو حاول لمسي؛ سيستيقظ الجيران حتماً قبل أن يمسني بسوء. صرت أطمئن نفسي

لم أتوقف عن العدو، ولم أنظر ناحية السيارة قط.

فُتح باب السيارة، وخرج منها صاحبها.

.ماجدة؟

توقفت عن الحركة حين سمعت اسمي، لكنني لم ألتفت، ولم أجب.

إنه شادي! هذا صوته. لم أنس رنينه في أذنيَّ على الرغم من مرور كل هذه السنين.

لكن ما الذي يفعله هنا، في هذا الوقت؟

السؤال نفسه وجهه لي، وصوته يرعد بالغضب.

.ماذا تفعلين في الشارع في منتصف الليل، وحدك؟

التفتُّ ناحيته.

.ابني مريض جداً، وسآخذه إلى المشفى.

فتح فمه ليقول شيئاً آخر، لكنه تراجع. تقدم ناحيتي ومد يديه لأخذ عمرو من بين ذراعيَّ.

اقترب وجهه من وجهي، ونظر في عينيَّ، فرأيته يضغط على جانب فكه.

.كنت تبكين؟

قالها بتعاطف ارتجف له قلبي، لكنني لم أجب.

استعاد سيطرته، وقال بحزم:

.اصعدي للسيارة.

obeikandl.com

. سأذهب لبيت جارتنا أم سليمان في الحارة الأخرى، هو قريب من هنا. ومن هناك سنتصل بالإسعاف.

. وهل تضمنين أن تستيقظ الآن؟ ستصلين للمشفى أسرع بالسيارة. يبدو أن الطفل مريض.

كنت أعلم أنه محق، ولكن رفقته تخيفني، وتستفز اعتراضي.

جلست في المقعد الخلفي، فناولني الصغير لأضعه بين ذراعيَّ. كان شبه فاقد للوعي.

ركب بدوره السيارة، وانطلق بسرعة. وطوال الطريق لم ينطق أحدنا بكلمة.

شعوري بأني معه في مكان واحد، يجلس أمامي وأراه، جعلني أتمسك عمرو خوفاً من أن تخونني حواسي.

تباً لي ولأفكاري!

أشعرني هذا التفكير بتأنيب الضمير لأنه أخذني بعيداً عن ابني المريض.

توقفت السيارة أمام مبنى المستشفى. خرج شادي من السيارة، والتف حولها ليفتح لي الباب.

تناول عمرو من بين ذراعيَّ، وحمله وانتظرني حتى خرجت وأغلق باب السيارة.

مددت يديَّ نحوه لآخذ ابني من بين يديه، فنظر إلي بحزم وقال لي:

. هيا، لندخله إلى الطبيب.

كدت أعترض لكن نظرته أسكتتني، فمشيت خلفه بصمت، وهو يحمل الصغير بكل حذر.

ظننت أنه سيوصلني إلى المشفى، ويتركني ويذهب.

طلب مني الجلوس على مقعد الانتظار، ووضع عمرو بين يديَّ وذهب لقطع تذكرة من مكتب الاستقبال. ثم عاد وأخذه من يديَّ.

. هيا، لندخل إلى الطبيب.

obeikandl.com

دخلنا غرفة الطبيب، فبدأ يفحص الطفل بعد أن شرحت له حالته بالتفصيل وكل ما يعانيه.

طرح علي عدة أسئلة ليستوضح حالته أكثر:

.هل أكل طعاماً مكشوفاً؟

.لا، لم يأكل إلا ما قدمته له، هو وأخوته في البيت من طعام ولكن لا أدري إن كان قد تناول شيئاً مكشوفاً في روضته؛ فأثر على صحته.

.هل عانى وحده هذه الأعراض في البيت؟

.نعم هو فقط، الجميع بخير.

.منذ متى، وهو يشكو من هذه الأعراض؟

. منذ ساعتين تقريباً. استيقظ من نومه، وهو يشكو من آلام بطنه، وكانت حرارته مرتفعةً جداً.

صمت وبدأ يكتب بعض التحاليل، ثم سلم الورقة لشادي وقال:

. فليذهب أبوه ليضع الطوابع على هذه الورقة لإجراء التحاليل اللازمة. وأنت، اذهبي لصنبور الماء واغسلي وجهه وقدميه بالماء حتى تنخفض حرارته.

هممت أن أقول له إن شادياً ليس والد الطفل، سبقني إلى الحديث قائلاً:

.افعلي ما قاله الطبيب.

يا لي من حمقاء! هل كنت سأقول للطبيب: هذا ليس زوجي؟

هو من تمنيت أن يكون زوجي يوماً. هو الرجل الذي سكن عمري كله.

أنجز ما طلبه منه الطبيب، وعاد بسرعة.

كان الطبيب قد وصف لعمرو حقنةً حتى يوقف القيء، ويخفف الألم الذي يشعر به.

اتجهنا للمختبر لإجراء التحاليل المطلوبة. بعد أخذ العينات اللازمة للتحليل جلسنا ننتظر في الخارج. جلس شادي قبالتي، وقد بقي عمرو معه، ينام بين ذراعيه.

obeikandl.com

نظراته تتأملني، تحرق كل ما تبقى مني... كلما رفعت رأسي نحوه هرب بعينيه بعيداً...

ثلاثة عشر عاماً مرت منذ رأيته، وهو يقف يراقبني، وأنا أُزف إلى رجل آخر...

لم يتغير... فقط بعض الشيب الذي لوّن سالفيه، وخطوط خجولة خرجت من مسار الزمن لترتسم على جانبي عينيه وفمه...

انتهت التحاليل بعد ساعة تقريباً، واستلمنا نتائجها ثم عدنا لغرفة الطبيب، فشخّص حالة التسمم الغذائي بعد قراءة النتائج.

وصف الدواء اللازم له وأوصانا بالإكثار من السوائل لتعويض ما فقده بسبب القيء.

تجاوزت الساعة الخامسة صباحاً حين خرجنا من باب المشفى. صعدت مرةً أخرى لسيارة شادي وجلست مع عمرو في المقعد الخلفي، وقد استسلم للنوم تماماً بعد أن أخذ الحقنة المهدئة.

انطلق شادي بالسيارة، ولكنه سار على مهل، هذه المرة.

وعند أول منعطف أوقف السيارة. انكمشت روحي بترقب.

.لماذا كذبت علي؟

قالها بهدوء يحمل الكثير من المرارة.

.لم أكذب عليك يوماً.

استدار في جلسته كي يواجهني.

.تباً لك! لماذا لم تقولي إنك مخطوبة؟ لماذا جعلتني أحبك، وأنت تعلمين أنك لرجل آخر؟

.لم أكن مخطوبةً.

قلتها، وأنا أنتحب.

.لم أكن أعلم شيئاً. ألا تسمع؟ لم أكن أعلم شيئاً. أحببتك، أيها الوغد، أكثر من عمري كله؛ خبأتك في قلبي دائماً، وأنت طوال هذا الوقت تكرهني، وتظن أنني خائنة. تباً لك وللعالم أجمع!

كنت أصرخ في وجهه بهستيريا، فبرقت عيناه وقال:

. إذن لماذا وافقت على الزواج؟ لماذا لم تتمسكي بي؟ كنت سأحارب العالم أجمع لأفوز بك.

أجبته، وأنا أنظر لعينيه برجاء:

.كان الأمر صعباً، حياة أبي كانت في الكفة الراجحة. قتلت قلبي لأحتفظ به حياً. فمتُّ أنا وهو، على الرغم من كل التضحيات.

مد يده ناحيتي محاولاً أن يمسح دموعي لكنه تراجع، وضمها بقوة كأنه يمنعها من التقدم أكثر.

بعد برهة من الصمت يبدو أنه حاول فيها السيطرة على مشاعره، سألني بهدوء:

.أين زوجك؟ لماذا تركك تخرجين وحدك في هذا الوقت مع ابنك المريض؟

. إنه ليس هنا؛ سافر منذ أربع سنوات للعمل في الخارج.

.هل لديك أولاد آخرون؟

.نعم، لدي أربعة أولاد: أكبرهم يبلغ اثني عشر عاماً، وهذا عمرو، أصغرهم.

عاد الغضب لوجهه وقال:

.كان يمكن أن يصبح هؤلاء أولادي، وأنت...

صمت فجأة وأغمض عينيه، ثم التفت ليعتدل في جلسته أمام المقود، وانطلق بالسيارة بسرعة.

لم ينطق أحدنا بأية كلمة بقية الطريق.

obeikandl.com

عندما وصلنا مدخل الحارة سألني عن الاتجاهات التي تؤدي لبيتي؛ حين وصلنا أوقف السيارة وترجل منها ليفتح الباب لي. حاول أن يأخذ عمرو مني ليصعد به درج البناية، ويوصلني إلى باب شقتي.

.لا داعي لذلك.

نظر لوجهي ففهم ما أريد أن أقوله.

أنا متزوجة، وأسكن وحدي؛ لن يرحمني أحد إن فعلها.

حملت ابني وألقيت نظرةً سريعةً على وجهه، ثم مضيت نحو مدخل البيت، وسمعته يغلق باب السيارة بغضب وينطلق في طريقه.

فتحت باب الشقة. كانت الساعة السادسة تقريباً. وجدت الأولاد قد استيقظوا، وينتظرونني في صالة البيت. جرى الجميع نحوي فور دخولي ليطمئنوا على أخيهم.

.كيف هو الآن، يا أمي؟ هل تحسن؟

.نعم، هو الآن أفضل بكثير، الحمد لله.

وضعت عمرو في فراشه، وذهبت للاغتسال وتغيير ملابسي. انتبهت أن الأولاد لا يريدون الذهاب للمدرسة. الوقت تأخر على أية حال، ولن أطلب منهم الذهاب؛ فأنا مرهقة، ولا مزاج لي لمجادلتهم.

جاءت وداد في موعدها اليومي. عندما رأت الأولاد تساءلت عن سبب تغيبهم لأنها تعلم مدى حرصي على التزامهم بالدوام المدرسي.

تبرع أحمد بالشرح لها فسرد لها تفاصيل الليلة الماضية بمبالغة شديدة، حتى إن وداد خالت أن عمراً كان على وشك أن يموت بالفعل، ليلة أمس.

نظرت إلي بهلع.

.وكيف حاله الآن؟

obeikandl.com

.هو بخير؛ لا تقلقي. يبدو أنه أُصيب بتسمم غذائي بعد تناول طعام مكشوف أثناء وجوده في الروضة. ربما اشترى طعاماً من الباعة المتجولين، وهو الآن أفضل بكثير، الحمد لله.

. ولكن كيف تدبرت أمورك في ذلك الوقت المتأخر، واستطعت الوصول للمشفى؟

.كنت سأمر ببيت أم سليمان كي نتصل من هناك بالإسعاف، أو آخذها معي للمشفى مباشرةً، ولكن الله أرسل لي طوق نجاة؛ مر ابن عمة صديقتي عبير بسيارته في الجوار ورآني وتوقف وأوصلنا للمشفى.

. كيف لم تفكري فيما يمكن أن تتعرضي له بعد خروج غير محسوب العواقب في ذلك الوقت من الليل؟ أضيفي إلى ذلك الخطر الذي عرضت نفسك له وتأويلات الجيران لو رآك أحد تسيرين في الشارع بعد منتصف الليل.

.كنت مضطرةً إلى ذلك، ولم يكن لدي خيار. مر الأمر بسلام، الحمد لله.

هزت رأسها، وحمدت الله.

استأذنت بعد ساعة بالمغادرة لأن لديها بعض الأعمال المنزلية التي يجب أن تنجزها.

قضيت باقي النهار في تنظيف البيت وغسل الأغطية التي لوثها عمرو بالأمس، والاعتناء به حتى يأخذ الأدوية في مواعيدها المنتظمة.

آخر النهار تفاجأت بزيارة عبير لي. قالت إنها أتت لتطمئن على صحة عمرو.

.وكيف عرفت أن ابني مريض ؟

كنت أعرف الجواب مسبقاً.

. ابن عمتي شادي جاء على غير عادته لزيارتنا اليوم بعد الظهيرة؛ كانت مفاجأةً رائعةً.

قالت، وهي تبتسم:

.حدّثنا عن صدفة لقائه بك ليلة أمس وأنت تحاولين الوصول إلى المستشفى مع ابنك المريض، وأنه عرض عليك إيصالك للمستشفى، وأنك خفت في البداية ولكنك شعرت بالاطمئنان حين علمت أنه ابن عمتي؛ فقد رآك وأنت تخرجين من بيتنا بالأمس بصحبتي.

كانت تتكلم عنه، وفي عينيها شعور بالانتماء له جعل قلبي يتلوى بغيرة حمقاء لا حق لي بها.

.نعم لقد دعوت له كثيراً على مساعدته لنا؛ أرجو أن تشكريه بالنيابة عني.

قالت، وهي تضحك:

.سأفعل بالتأكيد؛ فهو من طلب مني المجيء للاطمئنان على صحة الصغير.

.هو بخير الآن، الحمد لله.

لم تطل زيارتها، واستأذنت بالذهاب لأن الوقت قد تأخر ولا تريد لوالدتها أن تقلق.

أخذت عمراً للنوم في غرفتي حتى أستطيع مراقبة حرارته جيداً.

تمددت بجواره، وأنا أفكر فيما قاله شادي لعبير ووالدتها؛ وابتسمت، هو كان حريص أن يطمئن على عمرو.

شعرت بنعاس شديد؛ فأنا لم أنم منذ ليلة أمس، والتعب أخذ مأخذه مني فغفوت فوراً، وأنا أضم رسائله القديمة بيديَّ.

الفصل السابع

مرت عشرة أيام تحسنت فيها صحة عمرٍ، وشفي تماماً، وعاد للدوام في روضته.

لم تنقطع أم سليمان عن زيارتي يوماً خلال تلك المدة؛ فقد كانت تأتي للاطمئنان على أحوال الصغير، وتحمل له الحساء الدافئ الذي تصنعه له.

عادت عبير مرةً أو مرتين لزيارتنا أيضاً.

فهمت من حديثها أنها تأتي لتجد موضوعاً تتحدث فيه مع شادي.

وكان هو يبدي اهتمامه لصحة عمرٍ فكانت هذه فرصتها.

أما وداد فكانت زياراتها سريعةً جداً، تأتي دقائق وتذهب مسرعةً؛ خوفاً من عودة زوجها في أية لحظة.

"الأيام تمر سريعاً؛ كل منا يعدو في اتجاه معين؛ وتبقى آثار أقدامنا الشاهد الوحيد على ما اقترفناه من ذنوب؛ والرياح هي المتهم الوحيد بإخفاء الأدلة... "

يوم الجمعة دائماً ما يكون حافلاً لأنه يوم إجازة للجميع.

كعادة متبعة يكون فيه الطعام دائماً دسماً، يحتاج وقتاً طويلاً نسبياً لإعداده.

فيه يلتف جميع أفراد الأسرة حول مائدة الطعام كاحتفال عائلي أسبوعي يبدأ بعد صلاة الجمعة مباشرةً.

الأولاد في الصالة، وأنا في المطبخ أعد لهم طبق مقلوبة الأرز بالدجاج.

دق جرس الباب بإلحاح.

يبدو أنها وداد، جاءت بعد خروج زوجها مسرعةً، تريد أن ترانا قبل أن يعود مرةً أخرى.

ضحكت: مسكينة وداد! متى ستطلق سراح روحها من هذا العقاب الاختياري؟

صرخ أحمد فجأةً:

.أبي.

وقعت الأطباق من يديَّ دون أن أشعر.

سمعت صراخ الأولاد وتقافزهم، وصوت عماد يضحك عالياً.

هل هو فعلاً هنا ؟

يا إلهي! لقد نسيته تماماً، ولم أتفقد رسائله من مدة طويلة.

مرض عمرٍ شغلني تماماً في المدة الأخيرة.

خرجت من المطبخ لأستطلع الأمر؛ وجدته يجلس على ركبتيه، والأولاد يحيطون به بفرح، وهو يقبّلهم ويحتضنهم.

التفت إلي إبراهيم:

. أمي، أنظري مَن هنا. إنه أبي! أتصدقين ذلك؟

كان يتكلم، وهو يضحك ويصفّق بيديه.

كنت عاجزةً عن الكلام.

لا أعلم، أكان السبب المفاجأة أم الصدمة من وجوده أمامي؟

رفع رأسه ونظر إلي، ومازالت الابتسامة مرتسمةً على وجهه.

.ألن ترحبي بي، يا ماجدة ؟

انتبهت أني أقف بلا حراك دون أن أنطق بأي صوت يدل على مشاعري.

.طبعاً.

اقتربت منه وعانقته وقبّلت وجنتيه ثم انحنيت لأقبّل يده كما تعودت منذ تزوجت به.

أمي كانت تقول دائماً، عندما تستهجن احدى النسوة فعلتها هذه مع أبي:

obeikandl.com

. المرأة لن تجد من هو أحق بالاحترام من زوجها مهما كانت معاملته لها. وتقبيل يده دليل على سمو نفسها، لا ذلها.

.حمداً لله على سلامتك. إنها فقط مفاجأة غير متوقعة.

.وهل كانت جميلةً؟

.بالتأكيد، إنها جميلة جداً.

قلتها، وأنا أبتسم.

.كنت أنتظر رسالةً منك، فإذا بك هنا.

. لقد أرسلت أكثر من رسالة منذ أسبوع، ولكن يبدو أنك كنت مشغولةً لدرجة أنك لم تطلعي عليها. لو فعلت لكنت علمت بعودتي.

. هذا صحيح، لم أتفقد الرسائل منذ ما يقارب أسبوعين؛ فقد انشغلت تماماً بسبب ظروف مرت بنا. ولكن ربما شاهدت أنت كمَّ الرسائل التي أرسلتها والاتصالات التي أجريتها، في محاولة مني للتواصل معك، دون فائدة.

.نعم، فعلاً رأيتها بشكل متأخر؛ فقد منعني أمر خارج عن إرادتي من التواصل معكم.

.دعنا من العتاب الآن. مؤكد أنك متعب من السفر وجائع أيضاً. اجلس الآن مع الأولاد ريثما أجهز المائدة. فالطعام يوشك أن ينضج، أم تفضل الاغتسال قبل الأكل؟

.لا، سأتناول معكم الغذاء ثن أمر على والدتي لأسلم عليها فقد اشتقت إليها جداً.

.كما تريد.

قلت ذلك، ودخلت للمطبخ أكمل ما كنت أفعله.

لاحظت أنه لم يكن يحمل في يديه أية حقائب، ما عدا حقيبة يد صغيرة يبدو أنها تخص أوراقه الشخصية. لعلها ما زالت في المعبر، وسيأتي بها فيما بعد.

جلسنا حول مائدة الطعام، والأولاد في قمة الإثارة لوجود والدهم معنا.

أخذ يقص عليهم مواقف مضحكةً حدثت معه أثناء وجوده هناك.

كانت أنظارهم مسلطةً عليه بإعجاب شديد، ينتظرون كل كلمة تخرج من فمه بشوق وشغف.

التزمت الصمت وتظاهرت بالاستماع لما يقوله؛ بل حاولت أن أحتفظ بالابتسامة على ثغري طوال وقت تناول الطعام.

بعد ساعة قال إنه سيذهب لرؤية والدته.

.من منكم يريد مرافقتي؟

قفز الأولاد جميعاً، كلٌّ منهم يقول: أنا! نريد ذلك، يا أبي.

نظر لي بتساؤل؛ فقلت لهم:

.اذهبوا أنتم، سأهتم بتنظيف المطبخ، وأنجز بعض أعمال المنزل حتى موعد عودتكم.

هز كتفيه بلا اكتراث.

.كما تريدين؛ هيا، يا أولاد، لمفاجأة جدتكم.

خرجوا جميعاً، وأغلقت الباب خلفهم، وأنا أشعر أن داخلي مئات النساء، ولا يوجد لإحداهن قدمان تحملاني.

أنهيت ما علي من أعمال البيت، وذهبت لأتفقد جهاز الكمبيوتر لأرى الرسائل التي أرسلها لي قبل أن يأتي ولم أقرأها.

وجدت بالفعل ثلاث رسائل مرسلةً من حسابه لي يعلمني فيها أنه سيكون بيننا خلال أسبوع، ويعاتبني على عدم ردي عليه.

الغريب في الأمر أنني لم أجد في رسائله سؤالاً عن أحوالنا، أو حتى كلمة يبدي فيها اعتذاره لعدم إرساله الأمول إلينا، أو حتى شيء من الشوق يجعله سبباً في عودته المفاجأة للبيت.

obeikandl.com

أغلقت الجهاز، وبقيت الأسئلة داخل رأسي بلا جواب يريحني.

ذهبت، وغيرت ملابسي ووضعت بعض أدوات الزينة على وجهي لأصبح كأية زوجة مثالية تريد لزوجها أن يراها بأجمل صورة.

نظرت لصورتي في المرآة؛ كانت هناك أنثى لا أعرفها. هي في الحقيقة جميلة، ولكنها لا تنتمي لي.

عاد عماد والأولاد من بيت والدته، والأولاد ما زالوا يتقافزون حوله.

بعد ساعة من وصولهم بدأ النعاس يزور أجفانهم، ولكنهم قاوموه حتى لا يذهبوا للنوم فيفوتهم أي حديث يقوله والدهم.

.هيا، يا أولاد، حان موعد النوم. أراكم في الصباح، قال لهم عماد.

احتج أحمد.

.ولكن، يا أبي، في الصباح سنذهب للمدرسة.

ـ سأكون في انتظار عودتكم لنكمل حديثنا، وأقص عليكم المزيد من القصص.

تمتم إبراهيم، وهو شبه نائم:

.أهذا وعد، يا أبي ؟

.نعم، أعدكم بهذا. هيا الآن، إلى فراشكم.

لم يقتنع أحمد بكلام أبيه، ولكنه لحق بإخواته الذين تغلب عليهم النعاس وانسحب بدون جدال.

.تصبحان على خير.

قالها قبل أن يغلق باب غرفته.

بعد لحظات من الصمت، وحين تيقن عماد من نوم الأولاد:

.هل طردت أمي من بيتي؟

obeikandl.com

كنت أتوقع أي كلام إلا أن يطرح علي هذا السؤال، وفي أول جلسة لنا وحدنا منذ أربع سنوات.

.نعم، فعلت.

.وتجرؤين وتقولينها بوقاحة في وجهي؟

.نعم أقولها؛ ولو حدث وتكرر الموقف نفسه فسأفعلها مرةً أخرى.

قفز من مكانه، وأمسك بيده ذراع الكرسي الذي أجلس عليه. وباليد الأخرى أمسك بوجهي ضاغطاً عليه بقوة آلمتني.

.إنها أمي، أيتها ال...

.أكمل؛ قلها كما قالتها أمك في وجهي. هيا قل إنني عاهرة.

أفلت وجهي من يده، تاركاً آثار أصابعه عليه.

.إن تكرر الأمر وتطاولت على أمي مرةً أخرى فلن أرحمك. أفهمت؟

تحسست وجهي، ولم أرد عليه.

نظر لي باستهزاء، وقال :

.لا تنتظريني؛ فقد جاءتني دعوة من أصدقائي إلى حفلة على شرف وصولي.

هززت رأسي بصمت، ولم أرفعه إلا حين سمعت إغلاق الباب خلفه.

لم يفكر حتى بلمسي منذ وصوله! يبدو أنني لم أعد أرضي ذوقه أو أنه يشعر بالتخمة من النساء اللاتي كنّ حوله.

أنا لا أشتاقه صدقاً، ولكن الأنثى بداخلي شعرت بأنها منبوذة.

تقلبت كثيراً في فراشي، أحاول النوم بلا جدوى.

أشعر بأن الوقت أعمى منهك، والطريق أمامي مهجور.

السماء التي تظللني ملبدة بسحاب كاذب.

شفاه المسافات تقشفت، وما من سبيل لسقوط المطر.

obeikandl.com

في الخامسة صباحاً، وبعد صلاة الفجر، فتح زوجي باب البيت بمفتاح كنت قد أعطيته له قبل خروجه ليستعمله إن تأخر.

دخل الغرفة وجلس بهدوء على طرف السرير وقال لي:

. أعلم أنك مستيقظة. هل هناك ملابس في الخزانة من ملابسي القديمة التي تركتها قبل السفر؟ أريد أن أغتسل وأغير ملابسي.

. أين حقائبك وملابسك؟

. لم أجلب معي شيء حين عدت؛ فأنا أنوي العودة في أسرع وقت.

. تنوي العودة بسرعة؟ على أية حال، هناك بعض الملابس احتفظت بها مما تركته.

. جيد؛ انهضي لتجهيزها. أريد أن أستحم وأنام؛ فأنا متعب.

بعد أن فرغ من حمامه خرج ليجدني قد جهزت مائدة الافطار له وللأولاد.

بعد خروج الأولاد لم يذهب للنوم، بل طلب فنجان قهوة فحضرته له، وجلست قبالته.

. لماذا انقطعت مدةً طويلةً عن التواصل معي؟ ما هي الظروف القاهرة التي تجعلك لا تفكر بتفقدنا ولو باتصال؟

. كنت في السجن.

. وماذا فعلت لتدخل السجن؟

. واجهتني أزمة مالية وتوقفت عن العمل؛ وسبب لي ذلك الكثير من المشكلات التي أعجزتني فدخلت السجن مدة شهر. وحين خرجت منه استدنت المال من بعض الأصدقاء ثمن التذكرة وعدت فوراً للبلد.

. إذن لم يكن هناك مشكلات في التحويلات المالية أو خلافه؟ أنت لم تكن تملك المال لترسله.

. نعم؛ ها أنت قد اكتشفت الحقيقة.

obeikandl.com

قالها بتهكم.

.ولكن لماذا قلت إنك ستعود لهناك سريعاً؟

.لماذا تعود، وأنت لم تعد تملك هناك عملاً أو مالاً؟

.أنا لا أستسلم، يا حلوتي.

قالها ببرود جاف ثم أردف:

. جاء دوري بالأسئلة الآن؛ كيف تدبرت أمورك في مصروفات البيت؟ أعلم أنك لا تملكين شيئاً لتبيعيه.

. استدنت المال على أمل أن أسدده فور أن ترسله لنا. ولكن يبدو أنني لن أسدده في القريب العاجل.

.ومن قال ذلك؟ سنسدده عاجلًا؛ فلدي خطة أحل بها كل مشكلاتنا.

ثم راح يفكر بغموض.

شعرت أن هناك الكثير من الحديث يريد قوله، ولكن يبدو أنه آثر تأجيله.

غير موضوع الحديث فجأةً.

.أتعلمين من كان في سهرة الأمس، مع الأصدقاء؟

نظرت إليه دون أن أنطق.

. جارنا نبيل. لم أتعرف عليه قبل سفري، ولكني سعدت جداً بصحبته أمس؛ فهو رجل مرح، وجلسته مسلية جداً.

.نعم. يبدو أنه يشبهك تماماً.

قلتها، وأنا أشعر بالكثير من التقزز، وقد اجتاح الغثيان حلقي.

الأيام تسير على منوال واحد، أصبح برنامجه اليومي معروفاً؛ فبعد تناوله طعام الغذاء معنا يذهب لبيت والديه ويبقى هناك حتى المساء ثم يعود لتغيير ملابسه ويخرج مع أصدقائه حتى الفجر.

أيام الخميس يأخذ الأولاد لقضاء اليوم في بيت جدتهم والمبيت عندها.

obeikandl.com

ما كان يثير سخريتي وضحكي أن حماتي كانت تظنه يفعل ذلك لينفرد بي.

هذا ما فهمته من حديث الأولاد عن تعليقاتها.

الساعة كانت تشير للحادية عشر ليلاً.

جلست لأقرأ رسالةً وجدت أنها وردتني من صديقتي دعاء عبر الماسنجر، ومر الوقت دون أن أتكلم معها.

كانت قد أرسلت تلك الرسالة تحكي لي فيها عن أحوالها بعد وصولها لدبي.

بعد أيام من وصولي بقيت فيها بين أهلي أستمتع بصحبتهم التي كنت أفتقدها كثيراً. أرسلت لجارتي أسألها عن أحوال الأولاد بعد ذهابي.

قالت إن الصغير أكثرهم تأثراً؛ فقد بكى كثيراً على غيابك.

قتلتني بكلامها عنه؛ فأنا أيضاً أشتاقه جداً وإخوته، ويبدو أنني لن أراهم أبداً بعد اليوم. أتعلمين؟ سأقول لك الحقيقة.

هناك شخص كان ينتظر طلاقي لنتزوج؛ فأنا أحبه وكذلك هو، وما كنت لأتشجع على ترك زوجي وأولادي لولاه.

حين وصلت لدبي كلمته ووعدني بالمجيء لخطبتي فور أن تنتهي عدة طلاقي. من يومين طالبته بالوفاء بوعده فقال إن والدته رفضتني لأنني مطلقة، ومن المحال عندها أن تزوج ابنها بامرأة مطلقة. يبدو، يا ماجدة، أنه سيتخلى عني؛ وها أنا قد خسرت أولادي وقلبي...

ما قالته دعاء في رسالتها جعلني أوقن أننا أوراق شجر بائسة تتعلق في أقدام الرياح لتوهم نفسها أنها لم تسقط بعد.

أرسلت لها رسالةً.

"كنت أظنك أجملنا، وأنك وقفت تحت سيل المطر دون خوف لنفض قذارة الحياة. ولكن يبدو أننا جميعاً نقف تحت غيمة عاقر، ندّعي البلل لنرقص بفجور وسط الطريق. " أتممت رسالتي ثم أغلقت الجهاز.

الفصل الثامن

فُتح باب البيت ودخل عماد، وهو يدندن. استغربت عودته باكراً، هذه الليلة.

.أرى أنك عدت باكراً اليوم.

.نعم؛ فقد اشتقت إلى زوجتي الحسناء.

قالها، وهو يمط شفتيه.

.ألم تشتاقي إلي أيضا؟ٍ

قرّب وجهه مني، وهو يتحدث فاخترقت رائحة الخمر أنفاسي.

.وهل المشروب الذي احتسيته هو من فجّر هذا الشوق؟

.أيتها الوقحة!

قالها وشد شعري للخلف، مقرباً وجهي إليه.

. أنا أشتاقك وقتما أريد؛ وتأتين زاحفةً لإمتاعي بالطريقة التي أريد. أفهمت؟ هيا الآن، يا جميلتي؛ فأنا أريدك الآن أن تمتعيني.

قال هذا، وشدني من ذراعي ليرميني على الفراش.

ثقل أنفاسه الثملة صعدت بالقيء ليقف في منتصف حنجرتي لمسات يديه وهي تتجول فوق جسدي كانت تسد مسامات الهواء فيه تقتل ما تبقى مني ..المرارالذي علق في لعابي بعد كل قبلة جعلني أدرك أن للموت صورا عديدة هذا أسوأها

اكتفيت بالمشاهدة ..جسدي خانني فلم أقاوم ..أصبت بالخدل ولم أعد أجيد الحراك ..شعرت بجسده يتحرك من فوقي ليرتمي على جانبه باكتفاء

obeikandl.com

المهد الفاسق خطيئتنا التي لا تغتفر. بعد انتهاء كل موت فيه أنفض الغبار عن جسدي لأمارس الحياة من جديد كجثة لم يحن موعد قيامتها...

وقفت تحت الماء البارد لساعات أنتحب وأرتعش. أفرك جسدي بكلتا يديَّ؛ أنزع أصابعه عني أصبعاً أصبعاً.

أدس دموعي في صدر الماء؛ علّي أتطهر من دنس اللحظة.

كنت أصنع له القهوة الصباحية فرأيته يدخل المطبخ ليقف خلفي فانكمش جسدي دون إرادة مني.

ضحك عالياً حين رأى حركة جسدي.

. لا تخافي؛ لا أريدك الآن، يا حلوتي، على الرغم من جمالك الذي لا يقاوم ليلة أمس.

مد يده ليمسك خصلةً من شعري.

. لا تلمسني.

قلتها، وأنا أكز على أسناني.

أفلتها بسخرية، ورفع كلتا يديه بشكل مسرحي، وتراجع وهو يضحك.

وضعت فنجان القهوة أمامه وانسحبت لغرفتي وأغلقت الباب خلفي بالمفتاح.

منذ عودته، وزيارات وداد أصبحت نادرةً جداً لا تتعدى الدقائق.

تطل لتسلم علي وترى الأولاد وتذهب مسرعةً قبل مجيء أحدهم.

نظرتها لي نظرة العارفة بما يحدث ولكنها لا تقول شيئاً ولا تحاول أن تسألني عن شيء.

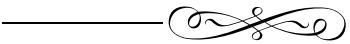

أما هو، فقد توطدت علاقته مع نبيل، زوجها، وكثرت زياراته لبيته على عكس نبيل الذي لم يزرنا قط، وهذا من حسن حظي؛ فرؤيته كانت ستصيبني بالمرض والقيء.

مرت الكثير من الليالي التي كان يعود فيها عماد مخموراً، والتي اعترف فيها أنه تورط في لعب القمار حتى أدمنه.

ومع توالي الخسارات، تراكمت عليه الديون. وأصبح الدائنون يلاحقونه في كل مكان فاختلس من الشركة التي كان يعمل بها وكُشف أمره فزج به في السجن مدة شهر. ثم خرج منه لأن احدى عشيقاته سددت المبلغ المختلس، وسُوي الأمر وتنازلت الشركة عن البلاغ ضده.

حكى لي ذلك بعد عودته، في إحدى الليالي، وهو يترنح، ولم أسمح له بالاقتراب مني فأخذ يتباهى بعلاقاته النسائية وكيف أن عشيقاته لا يبخلن بالنقود عليه.

كنت أستمع لكلامه ببلادة أصبحت رفيقتي في الفترة الأخيرة.

في ليلة الخميس، وبعد عودته من سهرته المعتادة، تمدد في الفراش بعد أن غيّر ملابسه، وقال لي:

. ستذهبين غداً معي والأولاد لبيت العائلة لتناول طعام الغداء مع أمي، وستحاولين كل جهدك إرضاءها.

.وإن رفضت الذهاب؟

التفت إلي بهدوء مبطن بالتهديد:

.وقتها لا تلومين إلا نفسك. ستراضينها. أفهمت ما قلته؟

.أمك طعنت في شرفي، وتريدني أن أعتذر لها.

.لو لم ترشيئاً لما اتهمتك.

.أيها ال...

أمسك وجهي بيده بقسوة.

.قوليها، وسوف أريك كيف أكون سافلاً بالفعل.

دفعني بعيداً عنه وعاد ليدير ظهره وينام.

قررت في اليوم التالي ألا أجادله؛ سأذهب معه كما يريد لبيت والدته.

ولكنني سأدخل اللعبة على طريقتي الخاصة!

استدعيت كيد المرأة ولؤمها اللذين يسكناني، ولبست أجمل ما لدي من ثياب وحلي تحت عباءتي. زينت وجهي بما أظهر جمالي بشكل رائع.

ابتسمت لنفسي في المرآة. وخرجت لأعلن لعماد والأولاد الذين ينتظرونني في صالة البيت أني جاهزة للذهاب.

نظر إلي عماد وزم حاجبيه، لكنه لم يعقب.

قال أحمد:

.أنت جميلة جداً اليوم، يا أمي.

ابتسمت له، فرِحةً بما قال. يبدو أن خطتي ستنجح!

حين وصلنا باب بيتهم، وقبل دخول عماد، استوقفته ودسست ذراعي في ذراعه وابتسمت له.

.هيا، لندخل.

سبقنا الأولاد في الدخول ليعلنوا وصولنا.

دخلت، وأنا أرفع رأسي، وابتسامة عريضة مرسومة على وجهي.

كانت حماتي تجلس في الصالون المقابل لمدخل البيت. أقبل الأولاد ناحيتها للتسليم عليها وتقبيلها.

استقبلتهم بالترحاب، وقبّلتهم جميعاً.

وحين رأتني أدخل مع عماد نظرت لذراعي التي تحتضن ذراعه فتغير وجهها.

أفلت عماد يده ليسلم عليها ويقبّل يدها.

قبّلته ورحبت به.

obeikandl.com

جاء دوري فاقتربت منها، وأنا ما أزال أبتسم على الرغم من شعوري بالذل، ولكنني أردت أن أكمل اللعبة للنهاية.

.كيف حالك، يا حماتي؟

مددت يدي لها فلم ترد، بل رفعت رأسها ثم أشاحت بوجهها جانباً.

.ما بك، يا حماتي؟ ألن تسلمي علي، وأنا في بيتك؟

.لقد طردتني من بيت ولدي من قبل.

.وها قد جئت لأعتذر منك؛ فقد كان شوقي لعماد وافتقادي لوجوده يسببان لي التوتر. ولكنه عاد إلينا الآن؛ تغيرت طباعي كما ترين.

كنت أكلمها، وأنا أميل برأسي على كتف عماد بغنج.

كان ينظر إلي وهو فاغراً فاه، وغير مصدق ما أقوله.

مدت يدها بغيظ وسلمت علي ورفعتها لي لأقبّلها وفعلت، وأنا مغمضة العينين.

ثم دخلت إحدى غرف وخلعت عباءتي وبقيت بثوبي الجميل الذي ارتديته تحتها، وزينتي المبالغ فيها، وعدت لأجلس قبالة حماتي، ملتصقةً بعماد.

تلذذت برؤية الغيظ والغضب والغيرة في عينيها عندما رأتني ملتصقةً بابنها.

تباً لي! يا لي من شريرة!

قالت أخيراً:

.سأقوم لتجهيز الطعام.

رفعت يدي بشكل مسرحي.

.لا، يا حماتي؛ فعماد لا يستسيغ الطعام إلا من يديَّ؛ فهو يحب الأكل الذي أصنعه فقط. أليس كذلك، يا حبيبي؟

قلتها، وأنا أنظر لعماد. ما رأيته من تعابير على وجهه أوشك أن يجعلني أضحك بصوت عال لكنني تمالكت نفسي بصعوبة وأتممت المسرحية.

.سأقوم لإعداد الطعام لكم بنفسي.

وجه حماتي غزاه الحنق؛ ربما لو كانت تملك بندقيةً لأردتني قتيلةً.

جلسنا على طاولة الغذاء وبدأت أطعم عماد بيدي، وأنا أدعوه بحبيبي وحياتي.

حماتي لم تأكل شيئاً؛ كانت تحرّك الأكل في الطبق أمامها.

خُيل إلي أن أي طعام ستأكله سيقف في حلقها ويقتلها.

جلسنا بعد الغداء لنتحدث؛ لم أتوقف عن متابعة الدور الذي نويت الانتقام فيه من حماتي بطريقة نسائية لئيمة لا توقعني في مشكلات معها أو مع عماد.

حماتي كانت على وشك الانفجار؛ يبدو أنني بالغت فيما أفعل واندمجت بالدور لدرجة لم أعرف نفسي.

جاء موعد مغادرتنا. سلمت على حماتي فكدت أرى بقعاً زرقاء على جلدها من شدة الغيظ.

ولأتمم المسرحية همست لها، كأني أشاركها سراً:

.شكرا لك، يا حماتي، لأنك تستقبلين الأولاد كل خميس؛ فهذا يعطيني مجالاً للانفراد بعماد.

وقبل أن أغلق الباب، وأنا متأبطة ذراع عماد، قلت:

.يا أولاد! لا تسببوا الإزعاج لجدتكم.

خرجت، وأنا أكاد أقهقه فرحاً بانتصاري النسائي الصغير.

في الطريق التفت عماد ناحيتي.

.لم أكن أعرف هذا الجانب فيك.

وضحك بصوت عال.

هذا كل ما قاله لي.

أوصلني للبيت، وقال إن نبيلاً ينتظره للاتفاق على عمل.

هززت رأسي، وقد عرفت عن أي نوع عمل يتكلم.

دخلت للبيت واغتسلت وغيّرت ملابسي وجلست على الكرسي، أحتضن ركبتيَّ.

بكيت...

بكيت كل الذل والقهروالغضب و الوحدة التي داخلي حتى غفوت.

اليوم التالي كان الجمعة. قال عماد إنه سيتناول غداءه خارجاً مع نبيل وبعض الأصدقاء. بقيت وحدي؛ فالأولاد ما زالو في بيت جدتهم فلم أصنع طعاماً للغداء اكتفيت بإعداد سندويش مع كوب من الشاي.

وفتحت جهاز الكمبيوتر، لعلي أجد فيه ما يشغل وقتي وتفكيري.

ولكني أقفلته بعد دقائق إذ لم أجد أياً من صديقاتي لأتحدث معها.

أمسكت برواية كنت أحتفظ بها قرأت بدايتها ولم أتممها ولكنني أيضاً كنت أعيد قراءة السطر عدة مرات، ولا أستوعب منه شيئاً فأغلقتها ووضعتها جانباً.

جلست أحتضن ركبتيَّ؛ فهذه الوضعية تشعرني ببعض الراحة.

لم أكن أفكر بشيء؛ هناك فقط فراغ يسكنني بلا اتجاهات، بلا عناوين أردت أن أتوه هناك دون أن يجدني أحد.

"نحن ندور في فلك دواخلنا. كل شيء يبقى ثابتاً إلا تنهيدة وزفرة خرجت من عتمة صدورنا لتغير حركة الفصول. ولكن يبقى الماء ماءً، ويبقى الكون ثابتاً إلا من تحركاتنا."

صوت جرس الباب أيقظني من حالة السكون والصمت التي تلفني.

نهضت وفتحت الباب دون أن أسأل عن الشخص الذي يقف خلفه.

فُوجئت بوجود ابن أخي توفيق أمامي.

.محمد ! كيف حالك، يا صغيري؟

يبدو أن هناك خطباً ما. هذا ما فكرت به، وأنا أراه أمامي.

هذه أول مرة يأتي بها محمد لزيارتي. حتى إنه كبر كثيراً منذ رأيته آخر مرة بالصدفة، ماراً في الشارع.

وجرى يومها ناحيتي ليسلّم علي.

لم يخطر لي شيء قد يكون السبب في هذه الزيارة.

.كيف حالك، يا عمتي؟

قالها، ومد يده لي.

سلّمت عليه، ودعوته للدخول.

.أشكرك، يا عمتي، وأعتذر أني جئتك في وقت غير مناسب وبلا موعد.

نظرت إليه؛ هو يبلغ أحد عشر عاماً، ولكنه يتكلم كرجل.

. لا تقل هذا؛ فهذا بيت عمتك، ولا تحتاج لمواعيد لزيارته. كما إنك جئت في وقتك؛ فأنا أجلس وحدي وأفتقد للصحبة.

دعوته للجلوس وذهبت لإحضار كأس من العصير لأقدمه له، والفضول يكاد يقتلني لأعرف سبب زيارته الغريبة.

.تفضل، يا صغيري، اشرب هذا.

قدمت له العصير وجلست قبالته، وأنا أبتسم له.

. شكراً لك، عمتي. لم يكن هناك داع أن تتعبي نفسك؛ فأنا على عجلة من أمري؛ فقد جئت لك برسالة من أبي.

نظرت إليه باسغتراب وتساؤل، فأتمم حديثه:

.هو يريد رؤيتك، ويتمنى أن تقبلي دعوته لزيارة بيتنا.

توفيق يريد رؤيتي!

. ماذا هناك؟ هل هو بخير؟

obeikandl.com

.بخير، يا عمتي؛ لا تقلقي؛ إنه فقط يشعر ببعض التعب، ولكنه يشتاق اليك ويريد أن تمري ليراك.

.انتظرني بضع دقائق؛ سأغير ثيابي وأذهب معك حتى أراه.

.عمتي...

التفتُّ إليه.

.شكراً لك لأنك لم تعيديني خائباً وقبلت الدعوة لزيارتنا.

ابتسمت له ودخلت للغرفة لتجهيز نفسي.

.سأنتظرك هنا.

قال ذلك وجلس.

لبست عباءتي، وأنا أفكر لماذا يرسل توفيق في طلبي بعد كل هذه السنين التي افترقنا بها، ولم يبدِ خلالها قط اهتمامه برؤيتي أو التواصل معي.

اقتصرت زياراته لي على زيارات الأعياد والمناسبات الرسمية. وفي الأربع سنين الأخيرة انقطع تماماً عن التواصل معي.

وبدوري شغلتني حياتي ومشكلاتي، ولم أحاول قط أن أصلح العلاقات بيننا.

ولكني لم أكرهه مطلقاً على الرغم من كل ما فعله بي. لم أكرهه يوماً.

بئساً لنا كم نحن جاحدين في حق أنفسنا وفي حق أحبائنا!

كتبت ورقةً، وعلقتها على باب البيت ليراها عماد والأولاد حين عودتهم، أعلمهم فيها عن مكان وجودي.

خرجت مع محمد.

.هيا بنا، يا صغيري.

لم يكن الفضول لمعرفة سبب الدعوة هو فقط ما جعلني أوافق على الدعوة. كنت أريد أن أطمئن أن توفيقاً بخير.

obeikandl.com

وربما شعور مخفي جعلني أريد أن أستعيد علاقتي بأخي لأشعر أني لست وحيدةً.

فتح محمد الباب ودخل للبيت ثم دعاني للدخول.

.تفضلي، يا عمتي.

يا ألله!

كم اشتقت إلى جدران هذا البيت! لرائحة التوت التي تعانقك عند أولى خطواتك داخل البيت!

صورة أبي المعلقة على الجدار المقابل لمدخل البيت أشعرتني أنه ما زال هنا. كل ما رأيته جعلني أقف لأتفقد الزوايا. أبحث عن ماجدة التي كانت تقفز هنا وهناك لتصنع طائرةً ورقيةً وتكوّن لها الجناحين.

استقبلتني زوجة أخي بالترحاب والحفاوة.

.تفضلي للداخل لتستريحي. هل أحضر لك القهوة أو العصير؟

.لا تتعبي نفسك، غاليتي ، جئت لأرى توفيقاً.

.هو يستريح في غرفته. تفضلي بالجلوس، وسأبلغه بوصولك.

.سيفرح كثيراً؛ فهو متشوق إلى رؤيتك.

جلست في بهو البيت، تنتابني الأفكار ويجتاحني التوتر لعدم فهمي ما يجري.

هناك خطب لا يريحني.

بعد لحظات وضعت أمامي كوباً من عصير البرتقال وانصرفت وبقي محمد يجلس معي.

صرت أتأمل ملامح البيت من حيث أجلس.

لم يتغير الكثير فيه؛ هناك بعض الدهان الجديد على جدرانه، وقد تشقق ليعاود الدهان القديم بالظهور من تحته.

وشجرة التوت تقف في مدخل البيت حيث زرعها أبي لترمي بظلالها على البيت كله.

التفتُّ على وقع خطوات توفيق، وهو قادم نحونا.

نظرت إليه. كان يتكىء على ذراع زوجته وهو يمشي بتمهل.

يبدو مرهقاً هزيلاً؛ قد نحف جسمه وذهبت القسوة من عينيه. كل ما رأيت أمامي رجل يبذل جهده ليستطيع الوقوف على قدميه.

أقبل نحوي، وابتسامة مترددة على شفتيه.

. ماجدة، أختي؛ أهلاً بك في بيتك.

وقفت، وأمسكت بيده.

. اجلس، يا أخي، تبدو متعباً. ماذا حدث لك، يا توفيق؟ هل أنت مريض، يا أخي؟

سألته، وإحساس بالشفقة والخوف ينتابني.

. إنه ميراثي من أمنا، يا شقيقتي. سرطان الدم، يبدو أنه اختارني.

يا ألله! ضغطت على كفه التي استبقيتها بين يديَّ.

. منذ متى، وأنت على هذه الحال؟ لماذا لم تبلغني من قبل؟

. ليس من مدة طويلة؛ فقد أصابني بكل قوته، ولم يدع لي مجالاً لمواجهته. لن تصدقيني لو قلت لك إنني كنت دائماً أريد أن آتي إليك وأقول لك: سامحيني، ولكني كنت أخاف أن ترديني خائباً. فما فعلته بك لا يغتفر.

وضع يده المرتجفة فوق يدي، وقال والدموع تنهمر بلا رحمة فوق يده الممدودة ناحيتي:

. هل تسامحينني، يا ماجدة؟

. سامحيني، يا أختي، بربك، سامحيني.

كان يتكلم، وهو ينتحب.

obeikandl.com

توفيق يطلب مسامحتي، والانكسار يملأ صوته!

يا ألله! ما أقسى الحياة!

. أقسم أنني سامحتك منذ زمن طويل. أنت أخي! أنت ما تبقى لي من رائحة أمي وأبي!

كنت أتكلم، وأنا أمسح دموعه بكلتا يديَّ.

. أنت سندي وعزي. أدامك الله فوق رأسي.

أخذني بين ذراعيه، وهو ينتحب بصوت عال.

دفنت حزني في صدره وانتحبت معه حتى شعرت بأنفاس أبي تلفني بالسكينة.

مر أسبوعان لم أنقطع فيهما عن زيارته ما بين البيت والمشفى. كانت حالته تسوء يوماً بعد يوم، ولكنه كان يقاوم قدر استطاعته.

وكلما سمع بمجيئي طلب أن أسنده ليجلس معي، ورفض كل محاولات إراحته.

. دعيني أعوض، ولو بعض الدقائق مما فاتني معك.

لم أعارضه، وكنت أظل أحكي له عن ذكرياتنا معاً، ونحن أطفال؛ وهو يبذل جهده ليبتسم.

في النهاية دخل توفيق في غيبوبة استمرت أربعة أيام بقيت فيها مواظبةً على ما كنت أفعله: أجلس بجانبه وأمسك يده وأحكي له كل ما يخطر لي من قصص الطفولة.

في اليوم الرابع استسلم توفيق ولبى نداء ربه.

كنت أجلس بجانب سريره، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة.

ارتخت يده بين يديَّ.

طلبت من الجميع الخروج وتركي معه بضع دقائق.

أمسكت يده الباردة وانحنيت وقبّلتها.

obeikandl.com

لماذا رحلتَ الآن؟

حين أرسلت في طلبي كنت في أمس الحاجة إليك؛ لم تركتني بعد أن وجدتك؟

هذا ليس عدلاً، كان عليك أن تبقى ولو قليلاً؛ فأنا ما زلت أحتاج صدرك لألوذ به. الجميع يرحل، وأنا هنا أبقى ويديَّ عالقة في رمال قبوركم...

ثم دفنت رأسي في صدره وأطلقت بكاءً كان حبيس صدري منذ رحيل أبي.

"الموت فكرة ولدت معنا منذ الصرخة الأولى وهي تنمو داخلنا...

نستبدل ثيابنا، أسماءنا، وحتى ملامحنا...

فقط يد الموت تلتصق بظلنا لترشده لنهاية الحفل...

وتقرع الكؤوس احتفاءً بالنخب الأخير... "

الزمن يكرر نفسه... المشهد نفسه رأيته حين عدت من جنازة أبي.

عماد يجلس في الصالة يستقبلني، ماطاً شفتيه ليستكثر علي حزني على أحبائي.

مر اليوم دون أن أتحدث معه أو مع الأولاد؛ لم أكن قادرةً على الحديث أو التواصل مع أحد.

لكن عماداً لم يفهم ذلك.

. هناك موضوع أردت التحدث فيه معك منذ مدة طويلة، وأجلته كثيراً منذ عودتي.

. وهل تجد أن هذا هو الوقت المناسب للحديث في أي موضوع ؟

. أعتقد أن موت أخيك له علاقة به بشكل ما؛ لذلك اخترت الحديث فيه الآن. وعلى أية حال لا أعلم لم أنت حزينة هكذا؟ منذ تزوجتك، وأنا أعلم أنك لا تحبينه. ما الذي تغير الآن؟ هل ستمثلين دور الحزن علي؟

. هذا ليس شأنك؛ حبي، كرهي، أو حتى حزني على موته هو شأني وحدي.

. حسناً، حسناً. لا يهمني لو حتى متِّ خلفه.

obeikandl.com

. لا أريد أن أتحدث في شيء الآن. فلتؤجل كل ما تريد قوله حتى تنتهي أيام العزاء، على الأقل.

.لك ذلك، يا زوجتي الحبيبة. أترين كيف أني زوج متفهم؟

.نعم، أرى ذلك بوضوح.

مر أسبوع على موت توفيق كنت أزور فيه زوجته وأولاده يومياً، ووعدتهم بأن أبقى على تواصل دائم معهم؛ فهم آخر ما تبقى من عائلتي.

عدت لروتيني اليومي المعتاد.

صنعت القهوة، وخرجت من المطبخ لأقدمها لعماد الجالس أمام التلفاز.

عندما رآني مقبلةً أغلق الجهاز فوراً فعلمت أنه يريد التحدث في موضوعه الذي أجلته أكثر من مرة لانشغالي بحزني.

لم يكن عندي فضول لمعرفة ما سيقوله؛ فقد صرت أحفظ نوع الأحاديث التي يهتم بها زوجي.

إما عن النساء والخمر أو عن المال ومرابحه المتوقعة.

.عدتُ من الخارج، وأنا مفلس تماماً، كما تعرفين.

. نعم، أعرف هذا. وأعرف أيضاً أن ما تبقى معي من نقود لن تكفينا إلا أياماً قليلةً. وإن لم تبحث عن عمل فلن نجد ما نشتري فيه طعامنا. وما أراه أيضاً أنه لا نية لديك للعمل.

.لن أبحث عن عمل هنا. لا يمكن أن أعمل عتالاً أو بائعاً متجولاً.

.ولكن عليك أن تعمل. كيف سنتدبر مصروف البيت إن لم تعمل؟

.عليك أن تطالبي بحقك في الميراث من بيت أبيك.

.ماذا؟

. ما سمعته تماماً. لك حق الميراث في المنزل الذي تركه أبيك. والآن، وقد مات أخوك فلا داعي للبقاء عليه؛ فقد أصبح الأمر أكثر سهولةً.

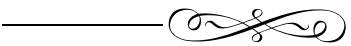

. وهل ترى أن أبيع البيت وآخذ نصيبي من هؤلاء الأيتام وأن أرميهم في الشارع لتدبر أمرهم؟

. يجب أن تطالبي بحقك قبل أن يتقاسم أولاده المنزل وتخرجي من المولد فارغة اليدين.

. لا أريد أية حقوق أو ميراث. هذا بيت العائلة، وسيبقى كما هو، ولن يباع أو يقسم.

. أنت، يا جميلتي، لا تريدين ذلك، ولكن أنا أريده.

. وما شأنك أنت؟

. أنت زوجتي، يا حلوة، ولي كل الحق في المطالبة بحقوقك. لديك خياران: إما أن تطالبي بحقك في الميراث ويباع بيت أبيك ويقسم ثمنه مع أولاد أخيك، أو أبيع هذا البيت لأتدبر أموري وأصلح وضعي المادي.

. ماذا تقول؟ تبيع بيتنا هذا؟

. في الحقيقة، هذه كانت نيتي منذ البداية. وقد وجدت مشترياً رائعاً دفع فيه مبلغاً مغرياً. ولكن، وبما أنه خطر لي حل جديد لا يضطرني إلى بيع منزلنا، فلنبق على المنزل إذن، ولنستفد من ميراثك.

. إذن أنت تعطيني خيارين؛ إما أن أبيع منزل أبي وأشرد أحفاده أو أن أبيع منزلي وأشرد أولادي؟ لقد عدتَ من سفرك من أجل ذلك، أليس كذلك؟ تبيع البيت وتأخذ ثمنه ثم تعود لمجونك وعشيقاتك.

. نعم، وهل هناك سبب آخر يمكن أن يدعوني إلى العودة؟

. أين موقعنا، أنا والأولاد، من هذه الخطة التي أعددتها لنجاحك؟ أين نذهب؟

. سأستأجر لكم بيتاً حتى أهيئ عملًا جديداً مربحاً، وأرسل لكم المال ثمناً لبيت جديد.

.وإذا لم ينجح عملك فأين سيكون مصيرنا؟ هل ننام في الشارع؟

.أنت مثل الغراب؛ تنعقين دائماً بالخراب.

.لن أخسر. أفهمت؟ لن أخسر.

. وأنا لن أطالب بأي ميراث، ولن أسمح لك ببيع منزل أولادي. ولا تنسَ أن ملكية البيت مسجلة باسمي؛ فأنت تنازلت لي عن ملكيته لتسهيل المعاملات الرسمية أثناء سفرك في حالة أردنا بيعه واللحاق بك.

نهض، وقال، وهو يكز على أسنانه:

.ماذا تقولين، أيتها الفاسقة؟

.أقول ما سمعته: لن تبيع بيتي وبيت أولادي.

فجأةً اعتدل في وقفته ثم جاءت الصفعة مدويةً، ثم تبعتها ثانية وثالثة، ثم أمسك بشعري.

.هل تريدين إغاظتي بكلامك هذا؟

.أنا لا أتعمد إغاظتك أبداً؛ أنا فقط أقول ما سيحدث.

ثنى رأسي للخلف أكثر، وهو يزيد من شده لشعري حتى شعرت أنه سيقتلع رأسي.

أغمضت عينيَّ حتى لا أرى وجهه الذي اقترب من وجهي حد التلامس.

قال بهدوء مبطن بالتهديد:

.ما سيحدث هو ما أقوله أنا. أفهمت، يا حلوتي؟

ثم دفع رأسي ليرتطم بظهر الكرسي الذي أجلس عليه، وخرج صافعاً الباب خلفه.

لم أبكِ بل نهضت وجمعت فناجين القهوة بكل هدوء ومضيت لأغسلها في المطبخ. ثم عدت لأجلس أمام التلفاز، أنظر لشاشته دون أن أرى شيئاً.

بقيت على هذه الحال حتى عودة الأولاد من المدرسة.

في اليوم التالي زارتني وداد. كان وجهها أيضاً مضرجاً بآثار الصفعات.

حين رأيتها نظرت إحدانا إلى الأخرى، وانفجرنا بالضحك بمرارة.

"نحن لا نستحق الشفقة، يا صديقتي...

أنا وأنت فاسقتان ترقصان حافيتين على زجاج مكسور، نبكي لنلعق الملح من فوق أحمر شفاهنا...

بتلذذ حزين...

لعلنا لا نتقن الدور جيداً، ولكن ضجيج الجمهور وهتافه يجعلانا نواصل الرقص... "

جلسنا في صمت؛ كل منا تمسك كأساً من العصير، تقلبه بين يديها.

أظنها جاءت لتستمد بعض القوة مني... يا للسخرية! هي لا تعلم أنني فارغة تماماً من القوة، ولا أملك إلا أصابعي الضعيفة هذه التي تعجز أن تمسك كوب العصير دون أن ترتجف.

قبل أن تخرج طلبت مني أن أمر بالصيدلية لأشتري لها علبةً من الأقراص المنومة. استغربت طلبها هذا.

.وما حاجتك للأقراص المنومة؟ سمعتُ أنها مضرة.

.في حالتي، فهي مفيدة جداً.

ضحكت، وقالت:

. الأرق لا يرحمني، كما تمر ليالٍ أكون فيها في أمس الحاجة أن أستغرق في النوم قبل وصول زوجي، فلا أرى وجهه. وكما قلت لك سابقاً تأتي ليالٍ أدس له في القهوة حبةً حتى ينام؛ فأهنأ بليلة صافية.

. في هذا معك حق؛ ربما أحتاج أنا أيضاً علبةً تشبهها. ولكن ما يمنعني هو الأولاد وحاجتهم لي.

ابتسمت لي وغادرت. ولكن قبل ذلك، أوصتني بتقبيل الأولاد حين عودتهم؛ فقد أصبحت تشتاق إليهم كثيراً لأنها لم تعد تراهم إلا نادراً.

جاء يوم الخميس وذهب الأولاد لبيت جدتهم كما العادة. قضيت النهار وأنا أشغل نفسي في أعمال البيت حتى إني كنت أعدت ترتيب ملابس الأولاد وطيها أكثر من مرة.

في المساء جلست في الصالة، أرتق بعض ثياب الأولاد.

فتح عماد باب البيت بعنف وأغلقه كما فتحه حتى شعرت أن الباب قارب على السقوط من قوة الصفعة.

دخل كالعاصفة.

وضعت ما بين يديَّ ونظرت إليه مترقبةً ومستغربةً هذا الدخول.

اقترب مني وشد شعري فانبثقت صرخة من حلقي من هول المفاجأة.

.أكنت تخونينني، أيتها الفاجرة؟

.ما الذي تقوله؟

.كنت تمتعين نفسك أثناء سفري، أليس كذلك؟

كان يتكلم، وهو يجرني من شعري على البساط.

.هل كنت تأخذين أجراً من عشاقك أو أنك كنت تستمتعين فقط؟

.اخرس، أيها السافل، لا تتكلم عن الشرف، و أنت لا تعرفه.

.أنا من سيخرسك للأبد.

وبدأ يصفعني ويكيل لوجهي اللكمات ثم رماني أرضاً، وبدأ يركلني بكتا قدميه وهو ينعتني بأقبح الصفات التي يمكن أن تسمعها أنثى من زوجها.

.لماذا تفعل ذلك؟

صرخت بأعلى صوتي.

. تخرجين في منتصف الليل لتقابلي عشاقك؛ لم تكوني حذرةً فقد رآك أحد الجيران وأنت تصعدين سيارة أحد زبائنك. أين ذهبت معه، أيتها العاهرة، هل أمتعك؟ هل جئت بأحدهم هنا للبيت؟

قلت له، ودموعي تنهمر:

. اخرس! هذا ليس شأنك، أيها السكير السافل. وقل لصديقك السكير الذي أخبرك بهذا الهراء إني أشرف منك ومنه.

. أتردين علي بكل وقاحة؟ لك الجرأة أن تردي علي؟

وعاد ليركلني بقدميه.

كان الدم يتدفق من فمي وأنفي، وبدأت أشعر بالدوار من كثرة الضربات التي تلقيتها على رأسي، ولكني لم أصرخ وصمدت.

. أيها الفاجر، ذهبت إلى المشفى لعلاج ابنك الذي كان على وشك أن يموت، وركبت مع أحد الجيران الذي أوصلني لهناك.

قلت له هذا، وأنا أكاد أفقد وعيي.

ثم بصقت في وجهه، وصحت بتقزز:

. هذه لك ولصديقك.

مسح وجهه بظهر يده.

. يا عاهرة، هل تظنين أني ساذج لأصدق ما تقولينه؟

. أتعلم؟ لا يهمني إن صدقت أو لا. طلقني وارحل من حيث جئت. لا أريدك في حياتي أو حياة أطفالي.

. أطلقك وأتركك لعشاقك، أليس كذلك؟ لن أطلقك إلا بعد أن تأتي لي بنصيبك من ميراثك في بيت أبيك. وستتنازلين عن ملكية هذا البيت غداً، وإلا حرمتك من أولادك وفضحتك أمامهم، وفي كل المنطقة.

. إذن هذا ما تريده. لا يهمك أن أسير عاريةً على الأرصفة لآتي لك بالمال.

obeikandl.com

أنت قواد! لست أكثر من ذلك. لست غيوراً على شرفك. وجدت ما تهددني به لأتنازل لك عن البيت، وتحصل على نقود ميراثي أيضاً. لا يهمك أولادك أو أي شيء. المال هو ما تريده فقط.

بصق في وجهي، وركلني على معدتي ركلةً أخيرةً وخرج.

سحبت جسدي حتى وصلت إلى طرف الكرسي؛ توكأت عليه لأصل للجدار حتى أستند عليه وأصل للحمام.

اغتسلت هناك، وكل جزء في جسدي يؤلمني. حاولت أن أزيل الدماء عن وجهي وحمدت الله أن الأولاد سيبيتون عند جدتهم ولن يروني على هذه الحالة. ربما خفَّ غداً أثر الرضوض والجروح قليلاً، ولن يلاحظوا شيئاً.

جررت جسدي الملوث بدناءة الحياة حتى وصلت لفراشي، وتكورت هناك وأنا أئن من الألم.

يا لسخرية الوقت!

تذكرت أنين وداد في الأيام التي كنت فيها وحيدةً، وأستمع لها من خلف الجدران.

وبدأت أغني لي ولها.

لم يعد ليلتها للبيت إلا في السادسة صباحاً. وجدته، قد ارتمى على الكرسي في الصالة، يبدو مخموراً.

ربما لم تحمله قدماه للوصول إلى لفراش.

كان شكله مقيتاً، يثير تقززي.

تركته كما هو ولبست عباءتي ونظارةً كبيرةً سوداء لأغطي بها آثار الكدمات على وجهي.

خرجت، وأنا أشعر بمئات السكاكين تحز في جسدي دفعةً واحدةً، بلا رحمة.

حاولت أن أتغلب على الوجع، ونزلت الدرج قاصدةً الصيدلية لأجلب أقراصاً مسكنةً ومطهراً للجروح وبعض القطن لتنظيف الجروح حتى لا تلتهب.

وصلت الصيدلية وطلبت ما أردته من الصيدلي فوصف لي نوعاً من المرهم المسكن لأغطي به الجروح. كان ينظر إلي، وفي عينيه الشفقة ظاهرةً.

قبل أن أخرج تذكرت أقراص المنوم التي أوصتني بها وداد في وقت سابق.

أخذتها من الصيدلي وشكرته ثم خرجت من الصيدلية، وهممت أن أقطع الشارع للوصول إلى الرصيف المقابل.

فوجئت بسيارة تقف أمامي.

فُتح الشباك الذي بجانبي، وأطل شادي برأسه وقال:

. اصعدي للسيارة.

تسمرت مكاني. يا إلهي! ألا يكفيني ما أنا فيه؟ ماذا لو رآني أحد الآن؟ سيكون دليل جديد على خيانتي. وربما استغله عماد في التشهير بي وتهديدي.

وقد يتورط شادي معي في المشكلات، هذه المرة.

ماذا علي أن أفعل الآن؟

حاولت أن أستمر في المشي وأتركه. فتح الباب الخلفي، وقال بإصرار:

. اصعدي للسيارة، وإلا نزلت وأحدثت جلبةً في الشارع وأرغمتك على الصعود.

. رجاءً، شادي، اتركني أذهب.

. قلت: اصعدي الآن.

استسلمت أمام إصراره خوفاً من أن ألفت الانتباه إلينا.

صعدت للمقعد الخلفي بحذر، وأنا أتلفت يمنةً ويسرةً، خوفاً أن يراني أحد.

ما إن أغلقت الباب حتى انطلق شادي بسرعة، بعيداً عن المنطقة.

واستمر بالسير دون أن يتكلم حتى وصل إلى شارع جانبي ركن سيارته فيه.

obeikandl.com

صمت قليلاً ثم قال:

.كيف حالك، والأولاد؟

.بخير، الحمد لله. جميعنا بخير.

كنت أكذب؛ فأنا لست بخير مطلقاً.

. أردت أن أقدّم لك العزاء في شقيقك، ولم أجد وسيلةً غير هذه لأراك. انتظرت خروجك حتى لمحتك اليوم، وأنت تسيرين ناحية الصيدلية. عظّم الله أجرك.

. شكر الله سعيك. أشكرك على حرصك على مواساتي، ولكنك تعرف أنك تعرضني بهذا للقيل والقال، وقد يتسبب هذا لي ولك بمشكلات كثيرة.

.تباً، يا ماجدة، أردت رؤيتك فقط.

التفت إلي فلمح الكيس الذي معي.

.هل أنتم فعلاً بخير؟ لماذا كل هذه الأدوية معك؟

. نعم، نحن بخير؛ اطمئن. هي أدوية أضعها في صيدلية المنزل خشية أي طارىء؛ فأنت تعلم: لدي أطفال، وقد يتعرضون لجروح أو ما شابه أثناء اللعب.

كم أصبحت أجيد الكذب!

كنت أنظر إلى ظرف الأدوية، وأنا أتكلم، ولم أنتبه أنه مد يده ناحية النظارة وسحبها فجأة عن عينيَّ.

شهقت، وحاولت أن أشيح بوجهي بعيداً عنه حتى لا يرى الرضوض والجروح في وجهي.

أظلم وجهه، وصار فكه مشدوداً من شدة الغضب.

.من فعل بك هذا؟

.أعطني النظارة، لو سمحت. لا يحق لك أن تفعل هذا.

.أجيبيني: من فعل بك هذا؟

obeikandl.com

قالها، وفي صوته الكثير من التعاطف.

.زوجك، أليس كذلك؟

خفضت رأسي، وبقيت صامتةً.

.تباً له! لماذا فعل هذا بك؟

لم أجبه.

.ماجدة، انظري إلي، أرجوك.

رفعت رأسي، ونظرت إليه.

ليتني أستطيع الاختباء في عينيك.. هذ ما جال في خاطري حين لمحت بريق نظراته الملهوفة.

.لماذا تبقين معه طالما يؤذيك؟ ما الذي يجبرك على ذلك؟

.أولادي؛ لا أريد أن أفقدهم. هم كل ما أملك، وإذا طلبت الطلاق فسيأخذهم مني ويحرمني رؤيتهم للأبد.

.لا يستطيع ذلك.

.بلى. سيأخذهم ويسافر ويتركني أموت من دونهم.

رفع يده أمام فمي.

. اصمتي! لا تتكلمي عن الموت. أنا أموت كل يوم في بعدي عنك. ظننت أن الغربة وسنوات الفراق أنستني إياك. حين رأيتك يوم العرس تلاشى فجأةً كل الوقت الذي مضى، وعدت إلى اللحظة التي رأيتك فيها أول مرة. علمت أن السنين لم تمر، ولا شيء يمكنه أن يخرجك من قلبي.

. يكفي هذا، أرجوك. أعدني، يا شادي، وانساني. تزوج بعبير؛ إنها إنسانة رائعة، وتحبك بصدق وتتمنى الارتباط بك. أخرج من محيطك امرأةً نسيت أنها امرأة؛ أنا لم أعد أملك قلباً بل آلةً لضخ الدم، لا مشاعر لها.

قدرنا ألا نلتقي... "وإن التقينا فلن نلتقي" محمود درويش

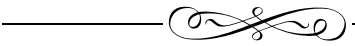

. صدقيني؛ جربت أن أتعايش مع امرأة أخرى، ولكنني فشلت فشلاً ذريعاً؛ كنتِ دائماً هناك في زاوية من قلبي. حتى وأنا أوهم نفسي أنك خنتني وأني أكرهك كنت دوماً أحبك. وفشلت بأن أسمح لأية امرأة أن تطرق قلبي. هل تظنين أني سأنجح الآن؟

سأظلم أية امرأة قد أرتبط بها

. تسكنني امرأة ليست لي.

.ولن تكون لك، يا شادي.

نظر إلي برجاء فهمست له:

.قتلت نفسي مرةً من أجل أبي، وسأقتلها مرةً أخرى من أجل أولادي.

مد يده ناحيتي...

أغمضت عينيَّ.

عانقني لعلي أولد من ضلعك مرةً أخرى وننجو...

هذا ما قلته بصمت...

فتحت عينيَّ فوجدته قد أرخى يده باستسلام.

والتفت ناحية المقود وانطلق بالسيارة.

دخلت البيت فوجدت عماداً قد استيقظ واغتسل وصنع لنفسه فنجان قهوة.

حين شاهدني سألني:

.أين كنت كل هذا الوقت؟

.ذهبت للصيدلية لأشتري مطهراً ولاصقاً للجروح.

نظر بعدم اكتراث إلى الكيس الذي أحمله ثم قال ببلادة:

.اذهبي لتحضير طعام الافطار؛ أشعر بالجوع.

دخلت غرفتي واستبدلت ثيابي ثم جهزت له الطعام.

obeikandi.com

وضعت الصينية أمامه فقال لي باستهزاء:

.ألن تشاركيني إفطاري، يا حلوتي؟

نظرت إليه كأنني بلا حياة، وقلت له:

.شكراً.

تركته وذهبت لتنظيف جروحي أمام مرآة الحمام.

بعد مرور بعض الوقت سمعته يقول:

.لن أعود لتناول طعام الغداء معكم اليوم؛ سأخرج مع جارنا نبيل في مشوار عمل.

ضحكت بصمت...

يبدو أنه وجد لنفسه عملاً يناسبه.

بعد خروجه بنصف ساعة كنت قد أتممت تنظيف جروحي، ووضعت بعض الأشرطة اللاصقة على الجروح هنا وهناك.

ضحكت لصورتي في المرآة...

كم أبدو مثيرةً للشفقة!

جاءت وداد. وحين فتحت لها الباب شهقت ووضعت يدها على فمها، مصدومةً من شكل وجهي والمناطق الظاهرة من جسدي.

اقتربت مني وأحاطت وجهي بيديها وقالت:

. سيندمون؛ لن يستمر هذا طويلاً، أعدك بذلك... أعدك. لن أسمح لهم بأذيتنا أكثر.

نظرت إليها على الرغم من أني كنت أشك فيما قالت؛ فأنا أظن أنهم سيربحون في النهاية، على أية حال.

احتضنتها، وبكينا معاً.

obeikandl.com

"يا صديقتي! نحن باذخات في مشاعرنا، نكره أكثر مما يجب، ونؤذي أكثر مما يجب، ونحب أكثر مما يجب...

ندمن خطايانا وننوح بصمت على صدر الوسائد...

قد نجرح الليل بأظافر الندم، وعند الصباح نرتدي أقنعتنا ونبتسم..."

كان المساء قد حل حين عاد الأولاد من بيت جدتهم. طلبت منهم الاغتسال وتجهيز حقائبهم استعداداً للمدرسة في اليوم التالي.

وأنا بدأت أحضّر طعام العشاء.

ذهبوا جميعاً لغرفتهم إلا أحمد لحق بي إلى المطبخ.

نظرت إليه فرأيته يمسك بملعقة موضوعة على الطاولة يتلاعب بها بتوتر ظاهر.

.ما بك، يا صغيري؟ هل أنت جائع ؟ دقائق، ويكون الطعام جاهزاً.

.لست جائعاً.

.إذن ما بك؟ هل حصل شيء ضايقك في بيت جدتك فجعلك متوتراً هكذا؟

.وما الذي جعلك تظنين ذلك؟

.أحمد، ما بك، يا صغيري؟ منذ متى تكلمني بهذه الطريقة؟

.أنا لم أعد صغيراً. لا تناديني بهذا اللقب.

.بل أنت صغيري، وستبقى هكذا مهما كبرت. قل لي الآن ما يزعجك.

اقتربت منه ووضعت يدي على رأسه.

.ما بك، يا بني؟

كان يحاول أن يتماسك قدر استطاعته وهو يتكلم.

سألني بصوت متهدج:

.هل أنت فعلاً كما يقولون؟

قلت بحذر:

.وماذا يقولون؟

انفجر باكياً.

. كانت جدتي تقول لجارتها إنك امرأة لم تحفظ شرف أبي... تخرجين مع الرجال ليلاً في غيابه... وإنك تدعين الشرف في حين كنت...!

خانه الكلام فدفن رأسه في صدري، وأجهش بالبكاء.

ارتجف جسدي كله...

لماذا يفعلون ذلك بي؟ ما الذنب الذي اقترفته؟

قبّلت رأسه وأمسكت وجهه بين يديَّ.

.انظر إلي.

مسح عينيه بظهر يده ونظر إلي.

سألته بهدوء:

.هل تصدّق أن أمك تفعل هذا؟

.لا؛ أنت أشرف منهم جميعاً.

عاد ليبكي من جديد ثم ارتمى في حضني ليعانقني.

رفع رأسه وقال:

. لقد قلت هذا لجدتي أمام من كانت تتحدث معها؛ وحذرتها أن تتكلم عنك بسوء مرةً أخرى، وأني لن أسكت إن فعلت. أتظنين أني لا أعرف ما يفعله أبي بك؟ أنا أعرف كل ما يجري. أصبحت رجلاً الآن؛ وسأحميك منهم جميعاً.

ثم أخرج مشرطاً من جيبه الخلفي ولوّح به أمامي.

.لا تخافي، يا أمي، أنت في حمايتي. لن أدع أحداً منهم يمسك بسوء.

شهقت وأمسكت يده.

obeikandl.com

.لا، يا بني! إياك أن تكون مثلهم كيلا يضيع عمري هباءً. هات هذا الشيء من يدك. أنا بخير، ولا يستطيع أحد منهم أن يؤذيني. طالما أنتم بخير وحولي فأنا لا أخاف مواجهة العالم أجمع.

بكى وقال لي:

.ولكني لن أدعه يضربك بعد اليوم.

.لن يفعل.

ابتسمت له من بين دموعي وقلت له:

.لن يفعل؛ نحن معاً ولن يستطيعوا أذيتنا. أتفهمني، يا صغيري؟

.نعم، يا أمي، أفهمك.

.أتعدني أنك لن تمسك هذا الشيء بعد الآن ولن ترفعه في وجه أحد؟

صمت وأحنى رأسه.

رفعته ثانيةً وقلت:

.أتعدني، يا بني؟

.نعم أعدك، يا أمي. فقط لا تبكي.

مسحت دموعي بكلتا يديَّ.

.ها أنا لا أبكي؛ هيا اذهب واغسل وجهك وجهز نفسك للعشاء. اتفقنا؟

هز رأسه وخرج من المطبخ.

"لو كنت أعلم أن الحياة فاسقة لبعت رحم أمي قبل أن يشتريني العمر... "

أدركت بعد الحديث الذي دار بيني وبين أحمد أنهم لن يسلبوني حب أبنائي مهما فعلوا.

بعد عدة أيام من ذلك الحادث أرسلت لي إدارة المدرسة إنذاراً بالفصل لابني وائل.

obeikandl.com

ذهبت في اليوم التالي إلى المدرسة لأستطلع الأمر فوجدت أنه ضرب أحد أصدقائه وآذاه. شكت لي معلمته من تصرفاته العنيفة في الآونة الأخيرة ضد أصدقائه.

تحدثت مع المرشد النفسي بخصوص سلوكياته، وما طرأ عليها من تغيير.

شرح لي ما أصبح عليه سلوكه العام ناحية زملائه.

سألني ذا كانت هناك مشكلات أسرية تحدث أمامه داخل المنزل.

. البيوت لا تخلو من المشكلات، ولكن يبدو أني لم أنتبه على التغير الذي حدث للأولاد. كنت أظن أني نجحت في إخفاء عنهم ما يحدث من مشكلات. ولكن يبدو أنهم أكثر فطنةً مما أعلم.

. سيدتي... المشكلات الأسرية، وخاصةً العنف الأسري، من أخطر العوامل التي تؤثر على سلوك الطفل، والطفل بطبيعته الذكية يستطيع أن يلمح التغيرات التي تطرأ على العلاقة بين الآباء، وهذا له التأثير الأكبر على بناء شخصيته سواء بالسلب أو الإيجاب على الرغم من محاولات الآباء الحثيثة لحجب مشكلاتهم بمختلف الوسائل. وإن لم تُعالج أعراض العنف التي ظهرت على سلوكيات الطفل في مرحلة ما بشكل واع فإن الأمر سيتفاقم. وقد ينتج عنه ما لا تحمد عقباه وما لا يستطيع الأهل بعد ذلك تداركه.

استمعت لشرحه، وكنت أعي كل كلمة ينطقها.

علي أن أحمي أولادي... هذا ما خطر لي، وفقط.

سويت الأمر مع المرشد حتى لا يُفصل وائل من مدرسته، ثم ذهبت لبيت أهل الطفل الذي ضربه لأعتذر لهم، وحملت معي بعض الهدايا له.

استقبلتني أمه بالترحيب وجدت أنه مصاب في جبينه بجرح كبير، وقد خاطه الطبيب.

اعتذرت لأمه عما فعله وائل به فأبدت تفهمها ووافقت على التنازل عن الشكوى ضد ابني في المدرسة حتى توافق الإدارة المدرسية على عودته للدوام.

وعدتها أن ابني لن يؤذي ابنها أبداً.

في طريق العودة للبيت عرّجت على بيت أم سليمان لعلي أجد بعض السلوى في حديثها.

طرقت الباب فخرجت ابنتها.

.تفضلي، يا خالتي ماجدة.

.شكراً لك، حبيبتي. كيف حالك، يا صغيرتي؟

.بخير، الحمد لله.

دخلت البيت وقلت لها:

.أين أمك؟ هل هي بالداخل؟

.ل،ا ليست هنا. ذهبت مع أخي للمشفى.

.المشفى! يا رب، سترك! ماذا حدث؟ لعله خير.

.سقط أخي الصغير وهو يلعب كرة القدم في الشارع، وكسرت قدمه.

.يا ألله!

.مسكينة أم سليمان. هي أيضاً قد أتعبتها الحياة في تربية أبنائها، وهي وحيدة.

.حسناً! سألحق بها لأطمئن عليه. هل تحتاجون شيئاً أنت وإخوتك؟

.شكراً، يا خالتي. نحن بخير.

ودعتها وانصرفت عائدة إلى بيتي لأنجز ما علي من أعمال ثم أذهب بعدها للمشفى.

بعد ثلاث ساعات من ذلك الوقت كنت أقف على باب المشفى.

obeikandl.com

انتبهت أن هناك بعض الضجة في مدخل المستشفى. وقفت لأنظر الأمر. كانت هناك امرأة تبكي بشدة وتعدو خلف الأطباء الذين يحاولون على ما يبدو انقاذ حالة طارئة.

تمعنت جيداً في المرأة. إنها أم وليد. أمها لسامية زميلتي أيام الدراسة، وهي ابنتها الوحيدة.

كانت الأجمل والأكثر تفوقاً في الفصل. كنت أحسدها دائماً على تميزها ومرحها الدائم.

لحقت بها لأستطلع ما بها.

سمعتها تقول، وهي تبكي:

.لم أكن أتوقع أنها ستفعلها.

دخلت الغرفة لأطمئن عليها فوجدتها غارقةً في دمائها، والمشرط الذي سرقته من غرفة أخيها الممرض والذي قطعت به شريان يدها ملقًى بجانبها.

حملتها بين يديَّ. كانت على وشك أن تلفظ أنفاسها الأخيرة، فقد دخلت عليها بعد لحظات قليلة من فعلتها.

.إنها ابنتي الوحيدة، يا دكتور. أرجوك، أنقذها، أرجوك.

ربت الطبيب على كتفها، ودخل غرفة الطوارىء وتركها تنتحب هناك.

ذهبت إليها وأمسكت بكتفيها وأجلستها على المقعد، وهي تجهش بالبكاء، وجلست بجانبها. سألتها:

.هل هي سامية التي بالداخل؟

رفعت رأسها كأنها الآن انتبهت على وجودي.

.نعم، يا بنتي. هي سامية. هل تعرفينها، يا بنيتي؟

.نعم، أعرفها، يا أمي. هي الأجمل والأكثر ذكاءً.

obeikandl.com

. نعم، هي كذلك. لقد قتلوها، يا بنتي. وأنا تركتهم يفعلون ذلك حتى إنهم لم يحاولوا إنقاذها حين حاولت الموت. طوال هذه السنين لم أحمها من ظلمهم؟

أتعرفين القطة التي كانت تعيش فوق السطح؟ كانت أماً لصغارها أكثر مما كنت أنا لابنتي.

كانت تتكلم، ودموعها تهطل بكل الوجع الذي داخلها.

. كل ما أرادته هو أن تتابع تعليمها؛ كانت تحلم بأن تصبح طبيبةً. وحين حصلت على المعدل الذي يؤهلها لدخول كلية الطب جاءت كأنه نبت لها جناحان. قبّلت رأسي ويديَّ؛ كان على وجهها هالة من النور زادتها جمالاً. ولكنهم أطفأوها: قتلوا جمالها، وأجهضوا حلمها.

قال لها أبوها:

. البنات للزواج فقط. طب؟ ماذا الذي تتحدثين عنه؟ أتريدين الذهاب للدراسة في جامعة مختلطة؟ أتريدين أن تجلبي لنا الفضيحة والعار؟

.ولكنه حلمي الذي عشت واجتهدت من أجله.

.أرجوك، يا أبي. لا تحرمني منه.

انحنت على قدميه وقبّلتهما، وهي تستعطفه ليرضى ولكنه نهرها، وداس عليها. اتفق مع إخوتها ضدها.

بكت وبكيت.

أضربتْ عن الطعام، وأضربتُ معها. هذا كل ما استطعت فعله لها.

أرادوا أن يزوجوها، ولكنها رفضت الزواج. حلقوا لها شعرها لتخضع لهم؛ شوهوا جمالها. وأنا لم أستطع حمايتها منهم. كنت أماً سيئةً. طوال هذه السنين حبسوها في غرفتها بعد أن أصيبت بحالة اكتئاب. كانوا يربطونها ويكمموا فاهها حتى لا تصرخ ويخرج صوتها العورة ويسمعه الجيران.

حاولت أن تقتل نفسها أكثر من مرة، ولكنها لم تفلح في التخلص من الحياة. هل كنت قاسيةً لأني أنقذتها في كل مرة من يد الموت. هي ابنتي، ولا أريدها أن تموت...

كانت تكلم نفسها أكثر مما تكلمني.

. حين رأيتها غارقةً في دمائها اليوم صرخت عالياً، ولم أجد أحداً منهم لينقذ ابنتي. حملها الجيران معي لنوصلها للمستشفى. أرادوها أن تموت حتى يتخلصوا من صراخها.

التفتت إلي وقالت:

.أتظنين أن علي أنا أيضاً أن أتركها تموت لتتخلص من وجعها؟

أخذتها بين ذراعيَّ دون أن أتكلم وبكينا معاً.

عرفت يومها من وجه الطبيب أن سامية استسلمت و فارقت الحياة. كذلك أمها، كانت تعرف من البداية.

حين خرج الطبيب من غرفة الطوارىء مطأطأ الرأس لم تسأله عن شيء، ولم تبك أو تصرخ. نهضت ومشت دون حتى أن تصدر صوتاً.

الآن علمت أن سامية هناك في مكان أكثر أماناً.

"أسمع أنينها... وجهها فارغ من العتاب... قدماها تتدليان بسخرية في وجه الحياة. لم تحب الموت يوماً. أرادت أن تصفع القهر... أن تبصق في وجه الحزن وأن تخرس ظلم هذا العالم القبيح. "

مررت بأم سليمان للاطمئنان على ابنها، لكنني لم أتكلم معها إلا بضع كلمات، وانصرفت مسرعةً لبيتي.

obeikandl.com

الفصل التاسع

جاء يوم الجمعة هادئاً. أتت وداد لتقضيه معي بعد أن خرج زوجي وزوجها ليقضيا اليوم خارج البيت؛ فقد أصبحا يعملان معاً، وتتوافق مواعيد وجودهما في البيت.

مر النهار، ونحن نثرثر.

حدثتني عن حياتها قبل أن تتزوج وكيف كانت الحياة رائعةً في ظل السعادة التي أحاطها بها والداها.

كانت تضحك مرةً، وأخرى تتجمع الدموع في عينيها.

عاد الأولاد آخر النهار من بيت جدتهم.

أحمد أصبح لا يحب الذهاب إلى هناك، ولكني تكلمت معه حتى اقتنع ألا يترك إخوته وحدهم يذهبون فيتعرضون لسماع كلمات جارحة عني.

عند دخولهم البيت ورؤيتهم لوداد هرعوا جميعا لعناقها بحب.

. خالتي وداد، اشتقنا إليك كثيراً. لماذا لم تعودي تأتي لقضاء الوقت معنا، كما في السابق؟

قال لها إبراهيم ذلك.

قالت، وهي تغالب دموعها:

. هل افتقدتموني فعلاً؟

قال لها أحمد:

. نحن نحبك جداً، خالتي وداد.

أيده الأولاد بهز رؤوسهم.

obeikandl.com

المشاعر التي ارتسمت على وجهها في تلك اللحظة جعلتني أوقن أن الأم التي تسكن قلبها يكفي حنانها لبث الدفء في أوصال هذا الكون البارد.

في اليوم التالي جاءت أم سليمان بعد الظهر.

دخلت إلى المطبخ، وقالت لي:

. لقد تركت الأولاد معاً، وأوصيتهم بسعيد ابني ليعتنوا به، وألا يقترب أحد منهم من قدمه المكسورة. فقد علمت صباحاً بوفاة زوج عمتها عبير، وجئت إليك لنذهب ونقدم لهم واجب العزاء.

أوقعت ما كان بيديَّ .

والد شادي توفي!

. أعلم، يا حبيبتي، أن سيرة الموت تحزنك، ولكننا جميعا راحلون. يقولون إنه كان يعاني ضعفاً في عضلة القلب، وقد ساءت حالته في الأيام الأخيرة وفارق الحياة.

كانت دموعي تغسل وجهي، وقد أبقيت ظهري مواجهاً لأم سليمان حتى لا ترى حزني الذي لن أستطيع تبريره.

بعد العصر ذهبت أنا وأم سليمان لبيت شادي لتأدية واجب العزاء.

دخلنا وكانت النساء حول والدته، يواسينها في مصابها.

سلمت على أخواته وعلى عبير ووالدتها وواسيتهن ثم ذهبت لأواسي والدته. كنت خائفةً أن تعرفني، ولكنها لحسن الحظ لم تتعرف علي، وسط حزنها ودموعها.

جلسنا بين النساء ودخلت المقرئة، فصمت الجميع وانتبهوا لحديثها عن الموت وعن تفاهة الحياة وسرعة زوالها.

ذكرت النساء بأن الله أوصى بالمرأة والأم لأن الحياة عجينة تقدر المرأة فقط على تشكيلها وإضافة الجمال لها.

obeikandl.com

فلتحسنَّ الدخول والبقاء ووضع النهاية، وليكن مروركن عطراً يبقى شذاه، حتى بعد الخروج من هذه الحياة.

بعد نهاية الحديث نهت أم سليمان أني أود المغادرة فهمست لي أنها ما زالت تريد البقاء بعض الوقت.

وصلت مدخل البيت فاذا بباب الغرفة الذي يقع عند المدخل يُفتح ويخرج منه شادي.

نظرت في عينيه. كانتا حمراوين؛ يبدو أنه كان يبكي في الداخل، بعيداً عن العالم.

.عظّم الله أجركَ.

.شكر الله سعيكِ.

وقفت هناك أنظر إليه، أتمنى أن أخفف هذا الحزن الذي يسكن عينيه. ولكن يجب أن أنصرف قبل أن يلاحظ وقفتي أحد.

هممت بالذهاب فاستوقفني.

.ماجدة...

رفعت رأسي إليه فوراً.

نظر إلي وأغمض عينيه.

عرفت أنه يريد أن يرمي بؤسه وحزنه بين ذراعيَّ، وينسى أننا ولدنا دون أن نملك هذا الحق.

أحنيت رأسيومضيت في طريقي وأنا غيرقادرة على البكاء حتى...

دخل عماد البيت، والرعب يرتسم على وجهه كان الوقت يقارب منتصف الليل ولم أكن قد نمت بعد.

.ماذا هناك، يا عماد؟

صرخ في وجهي:

.هذا ليس من شأنك. اغربي عن وجهي.

ثم جلس على الكرسي الموجود في الصالة، ينقر بأصابعه عليه بتوتر واضح.

نظر إلي مرةً أخرى، وقال:

.لا تقفي هناك تراقبينني؛ قلت لك: اغربي عن وجهي.

قبل أن أدخل غرفتي سمعت نقراً خفيفاً على باب البيت.

قفز من مكانه فوراً وأشار إلي أن أستوضح مَن بالباب دون أن يحدث صوتاً وتراجع ليتوارى داخل الغرفة.

.مَن بالباب؟

.أنا جاركم نبيل. هل أخي عماد هنا؟

صوته سبب لي القشعريرة والتقزز؛ كان يتكلم بصوت منخفض كفحيح الحية.

لم أرد عليه؛ فقد كان عماد في لحظة عند الباب ليفتحه.

كان يقف بالباب بشكله المخيف المقزز.

تواريت عن الأنظار داخل غرفتي ولكني حاولت أن أصغي إلى حديثهم لأفهم ما يجري.

لم يكن هناك سوى تمتمة غير مفهومة.

انتهى حديثهما الغامض والمريب فأغلق عماد الباب بعد أن دخل نبيل إلى بيته أيضاً.

عاد عماد ليجلس مكانه، وقد تغير مزاجه.

نادى علي بصوت يغلب عليه الارتياح فجئت إليه لأرى ما يريده مني.

.هيا، اذهبي لتحضير الطعام؛ فأنا أشعر بجوع شديد.

قال ذلك، وقد تمطط في جلسته، وعلى وجهه ابتسامة رضا.

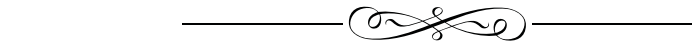

يبدو أن مجيء نبيل أتاه بأخبار جميلة غيرت مزاجه.

لا أستغرب اتفاقهما؛ فهما سكيران على شاكلة واحدة.

في صباح اليوم التالي، وبعد خروجهما معاً ذهبت وناديت على وداد لأدعوها إلى مشاركتي طعام الافطار كما كنا نفعل قبل عودة عماد من السفر.

جاءت مسرعةً، وقد فرحت كثيراً بهذه الدعوة. جلسنا حول مائدة الطعام، نتحدث.

قلت لها:

. هل لديك أية معلومات عما يحدث بين هذين الوغدين؟ يبدو أن هناك ما يخططان له، وهو على الأغلب شيء قذر.

ثم أطلعتها عما حدث بالأمس.

نظرت إلي وقالت:

.نعم، أعلم كل شيء.

هززت رأسي بتساؤل، منتظرةً أن تكمل حديثها.

. إنهما ينويان تهريب المخدرات عبر الحدود، ولكن يبدو أن شخصاً قد وشى بهما؛ وجاءت الشرطة إلى المكان الذي سيجري فيه التسليم. لكن أحد العاملين فطن لوصول الشرطة فأنذرهما بسرعة فهربا قبل وصولها بلحظات. كان جل خوفهما أن تكون الشرطة قد صادرت ما جلباه من مخدرات فيخسران كل الأموال التي دفعت ثمناً لها.

أظن أن هذا ما كان يقلق زوجك قبل أن يأتي إليه نبيل ويطمئنه أن كل شيء بخير.

.لكن عماداً لا يملك أية أموال. من أين جاء بها؟

هذا أول ما خطر ببالي حين حدثتني وداد بالقصة.

. لا أعلم... كل ما أعرفه أن الشرطة وصلت إلى المكان ولم تجدهما أو تجد مكان البضاعة فقد نجحا في إخفائها. انصرفت الشرطة من المكان وعدّت البلاغ كاذباً. هذا ما كان يتباهى به نبيل في اتصال أجراه قبل أن يأتي لزوجك ليحكي له ما حدث.

ضحكت وأضافت:

.كان يظن أني نائمة طوال الوقت؛ فلم يأخذ حذره أثناء حديثه على الهاتف.

إذن زوجي أصبح تاجر مخدرات!

وماذا بعد؟

بقيتُ مستيقظةً في فراشي، وقد غادرني النوم.

الحياة مجموعة من الكذبات نجمعها في باقة مزينة بشريط ملفت للنظر... وحدهم مرضى القلوب يستمتعون بعطرها.

.أراك ما زلت مستيقظةً.

هذا ما قاله لي عماد حين دخل الغرفة.

.نعم؛ فأنا أود الحديث معك في أمر مهم.

نظر إلي باستغراب، ثم قال بسخرية:

.تفضلي، يا جميلتي.

. المال الذي بحوزتي نفد، والبيت ينقصه الكثير من الأشياء. كذلك الأولاد لهم متطلبات كثيرة، وأنت لا تعطي للأمر أي اهتمام.

ضحك وقال:

.ومن أخبرك أني لا أعطي للأمر اهتمام؟ أنا أعمل لأوفر لكم المال، لكن الأمور لم تسر كما كان مخططاً لها.

.تعمل؟ وما هو نوع عملك؟

قلتها بتقزز.

.هذا ليس من شأنك، أنت تريدين المال، أليس كذلك؟

.لا أريد مالاً من طرق مشبوهة.

.كيف تريدينه، أيتها القديسة؟

قالها بتهكم ثم أضاف بحزم:

.غداً صباحاً ستأتين معي إلى الشهر العقاري للتنازل عن ملكية البيت.

.ماذا؟

.ما سمعتِه، لقد بعتُ البيت بعقد أولي واستلمت عربون البيع منذ مدة.

.وأين أذهب، أنا وأولادي إن بعنا هذا البيت؟

. قلت لك سابقاً: اطلبي ميراثك لتحل مشاكلنا المالية، ولكنك ترفضين هذا الحل. هذا البيت قد بيع، وستتنازلين عنه، شئت أم أبيت.

.وإن لم أفعل؟

ضحك بصوت عال مخيف، واقترب ليحدق بوجهي.

.أقسم بالله أني سآخذ أولادك منك، ولن ترينهم بعدها أبداً. ستستيقظين من نومك لتجديهم قد اختفوا بلا أي أثر، وستقضين بقية عمرك تبحثين عنهم بلا جدوى.

.لن تفعلها.

.أتراهنين على ذلك؟

قال ذلك، وقد ارتسمت ابتسامة خبيثة على وجهه، ثم أدار وجهه ليشعل سيجارةً وينفث دخانها بتمهل.

. لديك خياران: إما أن تذهبي معي للتنازل عن ملكية البيت، أو أن تذهبي لبيت أخيك لتأخذي حقك في الميراث لأسدد منه العربون الذي استلمته ثمناً لهذا البيت، ونتدبر أمورنا في الباقي.

الصفعات التي لا تسمع صداها تقتلك من الداخل...

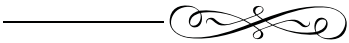

هل يمكن أن ينفذ تهديده؟

لا يمكن أن يفعلها؛ هو يحتاج المال، ولا يهتم أصلاً لأمر الأولاد ليأخذهم معه.

ولكن قد يفعلها لينتقم مني!

الضجيج في رأسي يكاد يقضي على ما تبقى مني.

يا الهي! ماذا أفعل؟

لم أنم ليلتها، وأنا أطرح الأسئلة وأنفيها. بقيت هكذا حتى طلوع الفجر.

استيقظ في الصباح على رنين هاتفه. كنت في المطبخ حينها، أصنع القهوة، خرج مسرعاً ولم يوجه لي أية كلمة.

يبدو أن اتصالاً مهماً ورده فاستدعى خروجه هكذا!

جاءت وداد بعد خروجه مباشرةً.

بعد أن ردت تحية الصباح حدقت بوجهي وقالت:

. ما بك، يا عزيزتي؟ أرى وجهك مرهقاً.

لم تعتد هي سؤالي عن شيء من قبل ولكن يبدو أن وجهي يبدو عليه المرض.

حكيت لها ما هددني به عماد بالأمس وأنه جلب أموال المخدرات من عربون بيع البيت.

صمتت قليلاً، ولم تعقب على كلامي فوراً.

ثم التفتت لي وقالت بحزم:

. سأقرضك المال الذي طلبه لتعطيه له ليعيد العربون الذي أخذه ثمناً للبيت، ثم ستقولين له إنك أخذتِه من زوجة أخيك كجزء من ميراثك. بهذا سينسى بيع البيت إلى أن يحلها الله.

. ولكنه لن يشبع أبداً، وسيطالب بالمزيد وقد يأخذه ليصرفه في ملذاته، ولا يسدد به العربون ويعود ليطالب بالبيع.

obeikandl.com

.لا، لن أقبل أن تضيع أموالك على هذا الوغد. عليك أن تفعلي ما أقوله لك؛ أنت مضطرة إلى ذلك. سيصمت على الأقل لفترة عن بيع البيت، وهذا سيعطيك وقت استراحة للتفكير بما يمكنك فعله. اتفقنا؟

.ولكن...

رفعت يدها، وقالت:

.لا أريد أي اعتراض؛ ستفعلين ما أقوله لك.

ثم رق صوتها، وقالت:

.من أجل الأولاد عليك أن تفعلي ذلك.

هززت رأسي، وأنا أغالب دموعي.

.شكراً لك، وداد، على كل ما تفعلينه من أجلي وأجل أولادي.

عانقتني، وقالت:

.أنا لم أفعل شيئاً بعد.

ثم نهضت، تستأذني بالانصراف.

في المساء، وقبل أن يعود أي منهما أحضرت لي المبلغ على عجل وانصرفت مسرعةً.

بعد عودة عماد من سهرته اليومية أعطيته المال، وقلت له إني جلبته من زوجة أخي كما قالت لي وداد.

أمسك المال، ونظر إليه نظرة انتصار. ثم ربت على أسفل ذقني بأطراف أصابعه وقال: .هكذا أريدك، زوجةً مطيعةً.

أزحت يده عن وجهي بامتعاض ونهضت من أمامه، غير عابئة بضحكاته المقيتة. مر الأسبوع بهدوء ورتابة عادية. لم يفتح خلالها معي أي موضوع يتعلق بالمال أو بيع البيت.

يبدو أنه اكتفى بما أخذه حالياً، وأن عمله القذر يلهيه عني هذه الأيام.

obeikandl.com

الفصل العاشر

جاء يوم الخميس، وذهب الأولاد لبيت جدتهم باكراً.

سمعت صوت دخول عماد إلى البيت. كنت في المطبخ، أجهز الطعام.

دخل كالعاصفة، يركل كل ما يجده أمامه ويكيل السباب واللعنات.

لم أخرج من المطبخ حتى لا ينالني شيء مما يفعله.

لذت بالمطبخ، أنتظر المشهد التالي باستسلام.

جاءه اتصال على هاتفه، فرد عليه وأخذ يصرخ ويسب ويلعن.

. صودرت كل البضاعة؛ خسرنا كل الأموال التي استثمرناها؛ أحدهم كان يترصدنا وأبلغ عن البضاعة حال إخراجها من المخازن التي وضعت بها. لم يبق لدي مال.

كان يصرخ على الهاتف، وعاد ليكيل اللعنات والسباب البذيء من جديد.

بعد لحظات، ضرب الهاتف بالأرض فقفزت من مكاني، وأنا أسمع تحطم الهاتف وصراخه.

دخل المطبخ فجأةً، وشدني من شعري وسحبني للصالة.

. لا أريدك أمامي، يا وجه النحس! ستتنازلين عن البيت. هل فهمت؟ وبعدها ستغربين عن وجهي، أنت وأولادك.

. لن أتنازل عنه لو قتلتني! لن أفعل.

. أتظنين أنني سأرحمك؟

وبدأ يدفعني ويركلني ويضرب رأسي بالحائط.

. سأقتلك.

واستمر بتوجيه الركلات لمعدتي فلم أعد قادرةً على التنفس تحت قدميه.

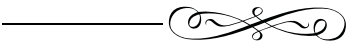

obeikandl.com

كان يصرخ، ويشتم بصوت عال:

. أيتها العاهرة! أتظنين أنك تستطيعين فرض كلمتك هنا؟ ما أقوله هو ما سيكون.

عاد وشد شعري.

. ستتنازلين عن البيت، ولو كنت ميتةً.

فُتح باب البيت فجأةً فدخلت وداد تجري نحوي، وهي تصرخ:

. اتركها بربك! ستقتلها.

دخل خلفها زوجها نبيل، وقال لعماد:

. ماذا تفعل، يا رجل؟ ستقتلها وتتورط بها.

أمسك به ليسحبه بعيداً عني.

. لا تجن! كل شيء سيُعوض. اهدأ الآن.

رفعت وداد رأسها نحوهما وقالت:

. نبيل! خذه من هنا. اذهبا لبيتنا ليهدأ هناك. سألحق بكما بعد قليل لأحضّر لكما القهوة والطعام.

سحبه نبيل من ذراعه وخرج به من الباب، وهو ما يزال يلهث بعد الجهد الذي بذله في ضربي.

كانت الدماء تسيل من أنفي وفمي.

أسندتني وداد وأدخلتني الحمام ومسحت وجهي ونظفته من الدماء ثم غيرت ثيابي. وبعد أن أجلستني على الكرسي ذهبت وصنعت لي كوباً من العصير أجبرتني على شربه.

. لماذا عاندتِه؟ كان عليك تركه يقول ما يريد في حالة الجنون التي كان بها.

كانت دموعها تنهمر على وجهها، وهي ترى ضياع قدرتي على الكلام.

. كنت قد وعدتك أني لن أدعه يؤذيك، ولكني أخلفت بوعدي؛ سامحيني.

تحاملت على نفسي، وقلت لها:

.الذنب ليس ذنبك أبداً؛ وعلى أية حال فقد أكون أحسن حالًا منك.

.نعم.

قالت ذلك، وأمسكت بوجهي بين يديها بعزم.

. انظري إلي، واستمعي لما سأقوله جيداً. سأتركك الآن لتحضير الطعام لهم. أما أنت فسترتدين ملابسك ثم ستذهبين لبيت أم سليمان لتبيتي عندها هذه الليلة. وإياك أن تعودي قبل الصباح. سيكون حينها قد هدأ، وأعدك أنه لن يؤذيك بعدها.

ثم أخرجت ظرفاً كانت تحتفظ به في جيبها.

.خذي هذا الظرف، ولا تفتحيه إلا غداً صباحاً. أتعديني أن تنفذي ما أقوله؟

هززت رأسي بألم.

.نعم، أعدك بذلك.

.هيا، البسي عباءتك واذهبي الآن.

لم تكن لي القدرة على التحرك، ولكنها أسندتني وساعدتني على تغيير ثيابي.

عند باب البيت التفتت إلي واحتضنتني بقوة ثم قالت:

.اعتني بالأولاد جيداً، وقولي لهم إني أحبهم أكثر من أي شيء في هذه الدنيا.

قلت لها، وأنا أمسح دموعي التي انهمرت من الألم والإشفاق والبؤس:

.سأفعل، أعدك بذلك، سأفعل.

.أراك على خير.

ابتسمت لي، وقالت:

.هيا، اذهبي.

وصلت لبيت أم سليمان، وأنا لا أكاد أقوى على الوقوف بعد أن بذلت مجهوداً خرافياً للوصول إلى بيتها. ولولا أني وعدت وداد بالمجيء لما خرجت من بيتي

obeikandl.com

قط، ولكني وجدتها على حق؛ فأنا بحاجة للابتعاد عن محيط وجود عماد، ولو لليلة.

كنت أعلم أن أم سليمان ستحقق معي لتعرف القصة، وربما سأكون غداً محور حديث أهل الحارة.

ولكن هذا لا يهم؛ المهم أن أبتعد عن هذا القذر الآن.

فرحت أم سليمان جداً بقدومي. ولكنها عندما رأت وجهي بدأت تسب الرجال وتدعو على عماد بشل يديه لما فعله بي.

بعد أن نام أولادها صنعت لنا الشاي، وجلسنا لنتحدث.

كانت الساعة الحادية عشر ليلاً.

سمعنا صوت ضجيج في الحارة، وهو أمر غير طبيعي في مثل هذا الوقت.

.يا ساتر، يا رب.

قالتها أم سليمان، وتحجبت ثم خرجت مسرعةً للشرفة لتستطلع الأمر.

سألتها من الداخل:

.ماذا هناك، يا أم سليمان؟ هل الأمور على ما يرام؟

ثم لحقت بها للشرفة.

سمعت أحدهم يقول إن هناك حريقاً هائلاً في الحارة الثانية.

.ها هي عربات الاطفاء تذهب إلى هناك!

ثم أشارت وداد إلى عربة تمر مسرعةً من الشارع.

.أية حارة تقصدين؟

.لا أدري؛ الدخان يأتي من ناحية حارتكم، انظري.

نظرت إلى حيث أشارت فرأيت دخاناً كثيفاً يتصاعد فعلاً من ناحية الشارع الذي أسكنه فصحت بها:

.هيا بنا.

obeikandl.com

خرجنا مسرعتين، نقطع الشارع، وأنا أرى الجميع يعدو ناحية الشارع الذي أسكنه.

دخلت أول الشارع، وقدماي لا تقويان علي حملي. كانت الدموع تحرق عينيَّ، والخوف ينهش كبدي.

أصبحت أرى بوضوح النار تأكل بيتي، وألسنتها تخرج من كل مكان في البناية.

عربات الاطفاء تحاول الوصول لإخماد الحريق الذي يزداد اشتعاله، والجميع يصرخ:

.هناك أحياء في الداخل؛ أخرجوهم.

وقفت أمام البيت أنظر إلى لنيران، غير مصدقة ما أرى.

أم سليمان تصرخ وتضرب وجهها بيديها، وهي تولول.

رأيتها هناك، تقف خلف زجاج النافذة.

صرخت بأعلى صوتي:

.وداد!

توالت صرخاتي باسمها.

أردت أن أنبه أحد على وجودها لإنقاذها.

صرت أصرخ، والدموع تملأ وجهي. فجأةً انفجر زجاج النافذة، واختفت وداد من خلفها، ولم أعد أرى إلا الدخان الأسود.

.وداد! لماذا فعلت ذلك؟ لماذا؟

كنت أبكي بجنون. سقطت على ركبتيَّ.

بقيت هكذا حتي شروق الشمس، والكل يعدو من حولي حتى خمد الحريق تماماً.

.لم ينجُ أحد ممن كانوا في المنزل.

obeikandl.com

هذا ما قاله أحد المارين، وآخر قال إن الشرطة ترجح أن الحريق نشب بفعل فاعل.

أسندتني أم سليمان لأقف، وأنا أشعر أن العالم أصبح بلا ملامح. أخذتني إلى بيتها، وبقيت صامتةً طوال الوقت.

بعدها أخذتني لبيت حماتي لأبقى مع الأولاد في مصابهم.

ناموا جميعاً في حضني، يبكون موت أبيهم. لكنني لم أكن قادرةً على مواساتهم.

حتى الدموع نفدت مني!

بدأت التحقيقات معي في ملابسات حادث الحريق.

كنت ممن وجهت لهم أصابع الاتهام فيما جرى.

ولكن شهادة أم سليمان بوجودي معها وقت اندلاع الحريق نفت عني التهمة.

خرجت من مركز الشرطة، وسألت أم سليمان أن تتركني وحدي.

تفهمت الأمر، وذهبت إلى بيتها وتابعت الطريق وحدي، أسير بلا وجهة معينة.

تذكرت فجأةً الظرف الذي أعطتني إياه وداد.

أخرجته من جيبي بعد أن بقي هناك من وقتها.

فتحت الورقة وبدأت أقرأ.

مرحباً، عزيزتي ماجدة...

أنا الآن في مكان آخر؛ أتمنى أن أكون أشاهدكم الآن من حيث أنا؛ فأنا أشتاق إليكم جدا.حين دخلتم حيز حياتي البائسة، أنت والأولاد، أصبحتم كل ما أحب. جلبتم لعتمتي قوس قزح بعد أن حسبت أن الشمس لن تشرق أبداً على نافذتي.

أطفالك كانوا الجنة التي طالما حلمت بها، ولكنها حُرّمت علي؛ فأنا الضالة التي ارتكبت الإثم الذي لا يغتفر.

حين اجتمعوا حولي ليقولوا لي "نحبك" عرفت أني نلت المغفرة أخيراً، وأن الذنوب سقطت عني؛ فأقسمت وقتها ألا أدع شيئاً يؤذيهم.

وضعت الحبوب المنومة لهما في الطعام والقهوة؛ وحين استسلما للنوم أشعلت المبنى كله...

لقد استحقا الموت...

وأنا لم يعد لي مكان في هذه الحياة.

كلٌّ نال العقاب الذي يستحقه...

أبلغي أمي أني انتقمت لها ولأحبائها وأني رحلت وأنا أحبها، وأتمنى أن تسامحني يوماً على ما فعلت. أحبكم، وأريدكم دائماً بخير. لا تنسوني، وادعوا لي بالمغفرة.

ملاحظة: سيتصل بك المحامي قريباً؛ فقد كتبت كل ميراثي من أبي باسم الأولاد.

وداد

"هناك أشخاص لا يحدثون ضجيجاً في حياتك؛ يمرون على أطراف أصابعهم بلا فوضى، بلا صوت... وفي لحظة ما أو عند مفترق طريق ستجد بصماتهم أو آثار أقدامهم ترشدك..."

"الجميع يحدث فرقاً، ولكن لكل منا أسلوبه وطريقته. "

كنت قد وصلت لدكان عمي أبي جمال وجلست بجواره أتنفس رائحة الأرجيلة.

"هناك لحظات من العمر تجد فيها أن جيوبك فارغة من الحياة، وربما تجد نفسك قد سقطت من إحدى شقوقها على أسفلت صلب... رنين سقوطك سيلفت انتباه المارة، ولكن لن ينحني أحد لالتقاطك.

أنت عملة لا تجلب الحظ!

obeikandi.com

عليك أن تلملم الكثير من الهذيان لتخيط أوهامك التي ثقبت، تتلفت حولك فلا تجد من ينظر إليك، تنفض الغبار، ترفع رأسك وتلوح للجميع.

أنا بخير. "

.كيف حالك، يا بنتي؟

سألني العم أبو جمال. رفعت رأسي فرأيت شادياً يقف على الرصيف المقابل، ينظر إلي، وهو يمسك ابنه بيده.

.أنا بخير...

تمت، بحمد الله.

obeikandl.com

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

- نشر كل إنتاج إبداعي ذو جودة عالية وأفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية

arabiclibrary2017@gmail.com

صفحتنا على موقع الفيسبوك

facebook.com/arabiclibrary2017

obeikandl.com